الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سَفَر



رواية

عائشة عبد العزيز الحشر

الطبعة الأولى
142 هـ - 2008 م

978-9953-87-232-2



عربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers,
شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
(+961-1) 785107 - 785108 - 786
1 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
(+96 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
ة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

ا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

د غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)
عربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

إهداء ..

إلى ست الحبايب

أمي الحبيبة.

1

لم يتبقَّ على موعد الرحلة سوى ساعاتٍ قليلة. ساعات تفصل عبد الله عن اللحظة التي تقلّه فيها الطائرة ليعود إلى أرض الوطن، وهو لا يزال ممدداً فوق الرمال الناعمة بالقرب من الشاطئ الذي يعجّ بالبشر، ينصت إلى الأمواج ولا يأبه لوجود بعض الحسناوات حوله، ثم يبتسم كلما تذكّر المرة الأولى التي رأى فيها النساء بملابس البحر على الشاطئ. "لم يعد السفر ممتعاً كما في السابق" هكذا حدّث نفسه، ثم تذكّر عبارةً قرأها قبل سنواتٍ تقول: نجدُ الحُبَ ونحن في غمرةِ بحثنا عن أشياء أخرى. ملأ رئتيه بالهواء ثم أخرجه في زفراتٍ طويلة.

ظلّ على حالته تلك يردّد في أعماقه: نَجدُ الحُبَ ونحن في غمرة بحثنا عن أشياء أخرى. بقي لدقائق يخلل أصابعه بين الرمال الناعمة ثم نهض قافلاً إلى الفندق ليجمع أغراضه ويتّجه إلى المطار.

على متن الطائرة التي ستصل به إلى مطار الملك عبد العزيز بجدة ومنه سيتّجه إلى مطار أبها جلس يتذكّر الأشهر القليلة التي مضت وكيف كانت ستسير حياته لو لم يذهب إلى المحكمة وينهي إجراءات الطلاق.

صدر صك طلاق عبد الله وأسماء في 1405/3/10هـ الموافق 1984/12/3م قبل أن يتمّ زفافهما. إذ رأيا معاً استحالة تفاهمهما بمجرد مرور ثلاثة أشهر بعد عقد قرانهما. وكان كلما زارها في بيت أهلها أو حدّثها بالهاتف اكتشف مدى اختلافها عنه. أدرك أنها لا

تميل إلى الاعتدال في الدين. ولم يكن يعلم هذا عنها قبل اقترانه بها. فليس بإمكانه أن يحدثها إلا بعد أن أصبحت زوجته لأن تقاليد المجتمع صارمة جداً في هذا الجانب.

وافق على خطبتها بعد إلحاح والدته التي رشّحتها له حين رأتها جميلة ومهذبة ومن عائلة محافظة. سأل عبد الله والدته عن دراستها واهتماماتها فعرف أن أسماء طالبة في السنة النهائية في كلية التربية قسم اللغة الإنكليزية. هذا كل ما كان يعرفه إلى أن تمّ عقد القران.

اكتشفت أسماء أيضاً أن من وافقت على الإقتران به لم يكن الرجل المناسب على الإطلاق. فعلى الرغم من ثقافته العالية واطلاعه الواسع إلا أنه لم يكن في رأيها متديّناً كما ينبغي، ليس هذا وحسب، بل ويكثر السفر إلى خارج البلاد. وكان صريحاً جداً معها حين لم يتردّد في إخبارها بأنه يشرب الخمر أثناء سفره. قال لها أيضاً بأنه يسمع الأغاني ويهوى العزف والغناء ولديه في منزله عود يعزف عليه في أوقات فراغه. كأس وغناء وكتب.. هذه هي حياة الرجل الذي كادت أن تزف إليه.

وبرغم الحزن الذي أصاب أسماء بسبب طلاقها إلا أنها شعرت بأن الله أراد لها خيراً إذ خلّصها من هذا الرجل الذي وافقت أن يكون زوجها بعد أن زكّاه بعض معارفه لوالدها.

شعر عبد الله بشيء من الأسى لفشله في الزواج بامرأة تناسبه. وبكثيرٍ من الارتياح لأنه أخيراً تخلّص من فكرة العيش مع تلك الفتاة التي تحاسبه على كل شيء وتنتقد باسم الدين كل ما يقول ويفعل.

انتبه إلى صوت المضيفة تطلب منه ربْط الحزام. ربَطَ حزامه وتناول كتاباً كان قد أحضره قبل سفره ولم يرق له في رحلة الذهاب

وها هو الآن في إيابهِ يقلب الصفحات بشكل سريع. اكتشف أن المؤلف يحاول إقناع القارئ بما لدى كل شخص من قدرات إذا استغلّها تغلب على ظروفه مهما كانت تلك الظروف. ابتسامات السخرية ترتسم على شفتي عبد الله وهو يخاطب المؤلف في أعماقه ويقول: "كيف يتغلّب الفقير على فقره في بلاد القحط والمجاعات. كيف ينجو المرضى من وباءٍ انتشر حولهم وداهم أجسادهم. كيف نتغلّب نحن على تصحّر حياتنا وجدبها لنجد الحب..؟ لنعيش أسوياء.. لنحافظ على أنفسنا دون عقدٍ أو شذوذٍ أو أمراض نفسية..؟ كيف نتحرّك ونتصرّف دون أن نخشى سطوة الناس وقسوة المجتمع..؟ لا نطمح إلى الكثير.. فقط نريد أن نحافظ على إنسانيتنا".

ألقى بالكتاب على المقعد الفارغ المجاور له ثم أسند رأسه على ذراعه وأغمض عينيه لينام ولم يستيقظ إلا عندما أوشكت الرحلةُ على الانتهاء.

في اليوم التالي ذهب إلى عمله وشيء من الإحباط يغلّف كلمات التحية التي يحيي بها زملاءه. لقد رجع من إجازته القصيرة مستاءً على غير عادته بعد أسفاره. ولسببٍ يجهله الجميع ظلّ ينجز عمله دون أن يطلق النكات والضحكات والتعليقات المرحة.

يسكن عبد الله مع والديه في ذات الفيلا التي انتهى من بنائها قبل أشهر. لكنه ترك لهما الدور العلوي واستقلّ بنفسه في الدور الأرضي. يجلس معهما على وجبتي الغداء والعشاء. ويطول جلوسه إذا جاء أخوه بزوجته وبناته وجاءت أخواته وأزواجهن وأبناؤهن وبناتهن.. يأتي الجميع إلى الوالدين اللذين ينتظران انقضاء أيام الأسبوع من أجل هذا التجمع في منزلهما في كل ليلة أربعاء. يقضي

عبد الله وقتاً ممتعاً مع العائلة، ثم يعود إلى منزله عن طريق سلم داخلي بين الدورين ليجلس إلى عوده وكتبه أو ليستقبل أصدقاءه المقربين. تلحق به أريج ابنة أخيه الكبرى أحياناً، وهي طالبة في الصف الثالث الثانوي. تبحث في مكتبة عمها عن شريط جديد أو فيلم فيديو لم تشاهده. ودائماً تعيد ما استعارته لكي يعطيها من جديد ما تحب من الأفلام والأغاني في ذلك الوقت الذي لا يوجد فيه قنوات فضائية، وليس أمام الناس إلا متابعة قناة التلفزيون السعودي والإذاعات المختلفة عبر الراديو أو اللجوء إلى أشرطة الفيديو ومشاهدة الأفلام العربية والأجنبية.

تحتلّ أريج مكانها المميز في قلب عمها عبد الله إذ إنها ليست ابنة أخيه وحسب.. إنها أيضاً صديقته. وهذا ما يعطيها الحق وحدها دون باقي أبناء الأخ والأخوات في الدخول عليه أي وقت تشاء لتأخذ ما تشاء من مكتبته. ودائماً تكتشف أسراره لأنه لا يحاول إخفاء الأسرار عنها.

لاحظت والدة عبد الله الضيق الذي يرتسم على ملامحه. سألته عن السبب فلم تسمع إجابة. ولهذا اقترحت عليه ذات الاقتراح الذي تردّده كلما سنحت لها فرصة.

- متى سأفرح بك.. متى سأرى أولادك.. متى ستوافق على أن نخطب لك من جديد..؟ عدم إتمام زواجك الأول لا يعني أن تبقى العمر كله دون زواج. كلما رأيتُ فتاة جميلة قلت سأخطبها لك.. فمتى؟ لقد تجاوزت الثلاثين يا عبد الله..؟

لم يفلح عبد الله في إقناع والدته بأنه يريد أن يحب الفتاة التي سيتزوّجها قبل أن يخطبها. لم يستطع إقناعها بأن شكل المرأة لا

يكفي لتحقيق حياة سعيدة أو على الأقل فيها بعض الانسجام.

– يا بني لن أخطب لك فتاة جميلة وكفى.. سنتأكد من تربيتها وسمعتها. أخبرني كيف تريدها وسأبحث لك عمّن تناسبك..

قال متهكماً:

– أريدها بيضاء، بأربع عجلات وأربعة مقاعد وبابين وفتحة في السقف.

أدركت أمه السخرية التي في كلامه فرمقته بنظرة غاضبة وصمتت فتابع:

– أمي.. أنا إنسان.. وأريد إنسانة.. لا أريد سيارة بمواصفات محدّدة.

–أخوك تزوّج. وأخواتك الثلاث تزوّجن وكل الناس يتوكّلون على الله ويتزوّجون.. إلا أنت، لم تقل لي ما المواصفات التي تناسبك لأبحث لك عنها.

– ماذا عن أحلام الفتاة التي ستخطبينها لي يا أمي؟ ماذا عن شخصيتها؟ ماذا عن تفكيرها؟ ماذا عنها كإنسانة..؟ أمي.. يجب أن أتأكد من مشاعري نحوها قبل كل شيء.

وظلّ عبد الله أشهراً عديدة يحاور أمه بذات الطريقة كلما ذكرت أمامه فتاةً رأتها في حفلٍ أو زواج. ولا يصلان إلى نتيجة.

2

مها طالبة مميزة حين كانت في الكلية. ومميزة في مدرستها التي تعمل بها معلمة بعد تخرجها. ميّزها ذكاؤها واتساع أفقها. وميّزها أيضاً جمالها الهادئ ورقّتها المفرطة. مَن يراها يرى التأني في تصرفاتها والخجل في كلماتها. لكن حين يتعامل معها يدرك أن الهدوء لا يتنافى مع الصلابة وقوة الشخصية. وأن الخجل مجرد تصورٍ في ذهن من يتعامل معها عكسته ملامحها الرقيقة. ودائماً تأتي ردود أفعالها قوية وحازمة.

قضت مها الكثير من ساعات النهار والليل على الهاتف في غرفتها تتحدّث إلى صديقاتها في أيام الامتحانات سنة تخرّجها من الكلية.

في ذلك الوقت لم يكن عصر الجوالات قد ظهر وبالكاد يوجد خط تليفون واحد في كل بيت، وبعض البيوت استمرّت لسنوات أخرى دون هاتف. في تلك الأيام شرحت مها لزميلاتها بعض المواد على الهاتف واستمعت إلى شرحهن، كلما رفع والدها السماعة الأخرى الموجودة في صالة الجلوس سمع مها وصديقتها تتناقشان بجدية تامة في مادة من مواد الدراسة. طلب والدها منها أن تخفّف من شغل الهاتف كل هذه الساعات. لكي لا يظن أحدهم ببناته الظنون إذا اتصل ووجد الهاتف مشغولاً باستمرار. فطلبت من والدها بالمقابل أن يسمح لها بزيارة صديقاتها لتذاكر معهن دروسها. تقبّل والدها هذه الطريقة في المذاكرة مع الصديقات إذ إنها أفضل من أن تخرج ابنته

من البيت حيث لا يفضّل والد مها ذهابها إلى أي بيت دون أن تصحبها والدتها. كما وأنه مطمئن إلى أنها لن تتحدّث إلا مع صديقاتها لأن وجود سماعة أخرى لذات الرقم يجعلها تخشى مغامرة التحدث مع رجل إن سوّلت لها نفسها ذلك كما حدث منها عندما كانت في المرحلة الثانوية، حين ضربها والدها بالعقال وحرمها من المدرسة ليسجنها في حجرتها أسبوعاً كاملاً، لا تغادرها أبداً. حتى حمامها موجود داخل الغرفة. وتعطيها والدتها أثناء حلول موعد الوجبات طعامها في غرفتها. في ذلك الأسبوع الرهيب الذي جرّبت فيه السجن الانفرادي بكت كثيراً إلى أن ملّت البكاء. ثم بدأت تسلّي نفسها بالقراءة.

تعاطفت معها والدتها وأحضرت لها الكثير من الكتب من مكتبة المنزل التي سبق لوالدها أن اشتراها بثمنٍ رخيص من ورثة رجل ترك ضمن ما ترك مكتبة تزخر بالكثير من الكتب بعضها يعدّ نادراً، وأضافها إلى الفيلا كديكور يضفي على المكان وقاراً وهيبة. ولم يفتح منها كتاباً على الإطلاق. لكن مها هي التي وقعت على كنز ثمين منذ أن سكنت هذا المنزل الجديد.

على أن عقابها الشديد هذا لا يوازي في نظرها الجرم المقترف إذ إن كل ما فعلته هو أنها أخذت رقم أحدهم من زميلةٍ لها في المدرسة واتصلت به لتثرثر معه لا أكثر. اكتشف والدها الأمر بعد أن بدأت الحديث مع ذلك المراهق المجهول بثلاثة أيام فقط. فأقسمت لوالدها بأغلظ الأيمان أنها لا تعرف اسمه بعد ولا يعرف اسمها. لكن والدها أنزل عقاله واندفع يجلدها بكل قوته. وبعد أن ترك آثار عقاله على جسدها أمر والدتها بسجنها في غرفتها ورمى عليها يمين

الطلاق إن سمحت لمها بالخروج من الحجرة لأي سبب كان إلى أن يوافق هو على ذلك.

تعلّمت مها من تجربتها الرهيبة أن تسير وفق ما يأمرها به والدها ووالدتها والمجتمع كله، فلم تعد تخفّف من غطاء وجهها أبداً خوفاً من كلام الناس وخوفاً من ضرب والدها. وصارت تتذكّر كلماته وهو يهوي بعقاله على ظهرها:

- تريدين أن تجلبي لي الفضيحة بين الناس يا فاجرة.

تعلّمت أيضاً أن تنسى التفكير في الرجال وأن تدفن انفعالاتها داخل الكتب. وتكتفي بأن تهيم عشقاً بمطربها المفضل محمد عبده. ورغم كلمات الغزل التي تسمعها من بعض زميلاتها الطالبات حين كانت في المرحلة الثانوية وبعد أن أصبحت في الكلية، ورغم تعرضها لمحاولات لا تنتهي لكي يبدأن معها علاقاتهن الشاذة إلا أنها ترفض الانصياع لهن بحزم يصل إلى المشادات مع اللواتي يخبرنها برغبة فلانة أو علانة في اتخاذها خليلة. وكثيراً ما وجدت في شنطة يدها رسالة غرامية من إحدى زميلاتها في الكلية تخبرها كم تتمنّى أن تكون لها حبيبة فلا تكترث لرسائلهن، وتمزّقها مباشرة. وكم كانت تشمئز من اللواتي تتيقّن من أنهن على علاقة شاذة ببعضهن، ويصل اشمئزازها إلى حد عدم رغبتها في الحديث إليهن أو حتى مصافحتهن.

استعادت مها ثقة أبويها بالتزامها التام بما يريانه صواباً كل هذه السنوات إلى أن صارت معلمة. ولكنها خسرت مرحها وتفاؤلها.. فغدت كئيبة محبطة.. تتأفّف من أتفه الأمور.. وتفضّل الصمت على الحديث مع الجميع إلا بعض صديقاتها اللواتي يشاركنها ذات الواقع..

تقضي الكثير من وقتها في حجرتها إما لقراءة كتاب أو للاستماع إلى أغنية من أغنيات محمد عبده وطلال مدّاح وقد خصّصت كراسة لكتابة الأغنيات وأخرى لتدوين بعض الخواطر الحزينة.. ليست متفائلةً بشيء.. ولا منتظرةً لشيء.. وكل ما هنالك هو أن لديها شعور بأنها على هامش الحياة، وليست في معتركها ولا تلوح في الآفاق بارقة أمل تدلّ على اقتراب تغيير هذا الواقع.

والدها الشيخ عبد الرحمن صار شيخاً لأن عاملاً في المؤسسة التي أنشأها للمقاولات ناداه بهذا اللقب فتبعه في ذلك بقية العمال ثم درج اللقب على ألسنة المتعاملين معه. ولم يستنكر المجتمع تلقيبه بالشيخ فهو من خيرة رجال قبيلته نسباً وأكثرهم كرماً، والجميع يتّفقون على أنه رجل مستقيم ونزيه شديد الوفاء لأهله وأقربائه.

يقضي الشيخ عبد الرحمن جلّ ساعات النهار في مؤسسته. فإذا أقبل الليل عاد إلى منزله ليتناول طعام العشاء مع زوجته وبناته الثلاث وولديه. ويتابع الأخبار أو يجلس في قسم الضيوف مع المقربين من أصدقائه.

وبالرغم من أن لمها عملها الذي يدرّ على المنزل مبلغا محترماً. إلا أن هذا لا يجعلها أهلاً لاتخاذ أي قرارٍ في أي شأن. ولذا وجب عليها أن تستأذن حتى لاستقبال صديقاتها في البيت. أما زيارتهن وحدها فممنوعة. وإذا اضطرت مها لزيارة إحداهن لأداء الواجب كعيادة صديقةٍ مريضة أو المباركة لصديقةٍ تزوّجت أو أنجبت طفلاً فعلى والدة مها أن تصحبها في زياراتها تلك. ولم تتميّز بكونها الأكبر من أختيها عبير وآية اللتين في المرحلة المتوسطة ومن أخويها عادل وأحمد اللذين في المرحلة الثانوية.

والدتها مشغولة دائماً إما بترتيب البيت والطبخ واستقبال الضيوف أو بالزيارات النسائية للجارات والقريبات. وبرغم وجود الخادمة في المنزل إلا أن والدتها تشرف على كل شيء بنفسها.

ترفض مها كل خاطبٍ يتقدّم لها دون أن تسأل عنه. لأنها ترى أن الزواج في هذه البلاد يسير بشكل معكوس إذ يتم الزواج أولاً ثم تتعرّف المرأة على ذلك الرجل الذي أصبح زوجها.. وأصبح عنقها في قبضته حسب تعبير مها. ولا تدري كيف تحلّ مشكلتها. فالخوف يقتلها من مجرد التفكير في البدء بمغامرة جديدة لتتعرّف على عالم الرجال. والزواج بالطريقة التقليدية يحوّلها إلى جارية يدفع أحدهم فيها مبلغاً يسمّيه الناس مهراً لكنه في اعتقاد مها يشتريها بذلك المبلغ ويأخذها إلى بيته فتصبح تحت سلطته بشكلٍ كامل.

استأذنت مها أثناء تناول طعام الغداء ذات يوم لتخرج مع السائق وتشتري بعض ما تحتاجه من كتب وأوراق وملفات تخصّ عملها.

وبعد صلاة العصر ارتدت عباءتها وغطّت وجهها بغطاءٍ أسود كثيف لا يسرّها ارتداؤه أبداً، لكنها مرغمة على ذلك. ثم اتّجهت إلى إحدى المكتبات الكبيرة. تأمّلت الأرفف.. قرأت عناوين الكتب بعد أن أزاحت الغطاء عن عينيها فقط ثم أعادته لأنها اضطرّت إلى الاستعانة بأحد الموظفين عندما لم تجد ديوان (تهجّيتُ حلماً تهجّيتُ وهماً) للشاعر محمد الثبيتي. وأخبرها الموظف بأن الديوان قد نفد من المكتبات.

أظهرت الفتاة أسفها بآهةٍ ممدودة بعض الشيء. شكرت الموظف وعادت إلى الأرفف من جديد. تبحث عما تريد، وحين

اقتربت من أحد الكتب فاجأها شخص لا تدري من أين ظهر ووضع أمامها وعلى نفس الرف الذي تضع يدها عليه ورقةً مفتوحة ثم انسحب بسرعة دون أن يتكلم، ودون أن يعطيها فرصةً لاستيعاب تصرفه.

فوجئت مها بالموقف، وظنّت في البداية أن في الورقة رقماً لهاتفه فهي تعرف أساليب الترقيم[1] التي يتبعها الشباب. نظرت إلى الورقة ووجدتها رسالة قصيرة لا تحوي أرقاماً. تركت مها الورقة المفتوحة مكانها على الرف وقرأت فيها..

"مرحباً.. لديَّ ديوان محمد الثبيتي. سأحضر الديوان غداً في مثل هذا الوقت تماماً وأضعه على باب المكتبة من الخارج يمكنك التقاطه إن شئتِ ذلك دون أن يشعر أحد. تحياتي... عبد الله".

اعتاد عبد الله زيارة المكتبة مع نهاية كل شهر، أي عند استلام الراتب. وتلك عادة بدأها عندما كان طالباً في الجامعة ثم استمر عليها كل هذه السنوات. يزور المكتبة كل شهر ويبحث عن الجديد، فإن وجد ما يشدّه اشتراه. ولم يغيّر عادته تلك إلا في ذلك اليوم. ولا يدري لماذا خرج من بيته وكيف جرّته قدماه إلى المكتبة والشهر لا يزال في منتصفه.

لاحظها تتأمّل أرفف الروايات تبحث بعينيها عن شيء معين. ثم رآها وهي تنتقل إلى أرفف الشعر. وبعد ذلك سمعها وهي تسأل عن الديوان.

---

(1) الترقيم يعني أن يكتب الشاب رقم هاتفه على ورقة صغيرة ويخرج إلى الأسواق لعله يستمكن من مغافلة الجميع بمن فيهم أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعطي الورقة لأي فتاة.

لم يفكر كثيراً. وجد نفسه يكتب لها رسالته القصيرة ويتّجه إليها ليضع الورقة على مستوى نظرها على الرف وينسحب بسرعة.

انزوى عبد الله في مكان يستطيع فيه أن يراها دون أن تراه ولمحها وهي تحمل الورقة بسرعة وتقذف بها في شنطة يدها بعد أن قرأتها ثم تغلق الشنطة بسرعة. ورآها وهي تتأمّل من حولها من الرجال المنشغلين بشراء ما يلزمهم دون أن تجد فيهم من تظن أنه هو الذي وضع الورقة أمامها واختفى في لحظات.

ظلّ عبد الله ينظر إلى الفتاة.. يحدّق في كل ما فيها من بعيدْ. ثم تساءل في خاطره "كيف يمكن لفتاة بالكاد أرى منها كفيها فقط أن تشدّني". لقد أعادت قطعة القماش السوداء لتغطّي الفتحة الصغيرة التي أمام عينيها كلما استدارت مبتعدة عن الأرفف. لم يرَ وجهها.. ولا حتى عينيها. تساءل من جديد "أيعقل أن يكون في صوتها من العذوبة ما يكفي عما سواه؟"

أطال إليها النظر من بعيد. تتبّع كل التفاصيل التي يمكنه أن يراها "لا أرى سوى كف امرأة.. امرأة مجهولة.. كفها يخبرني عنها" هكذا حدّث نفسه: "أظافرها طويلة بعض الشيء وعليها طلاء شفاف يعطي لمعاناً ولا يغيّر لون الظفر.. أصابعها بيضاء نحيلة.. في البنصر الأيمن خاتم صغير يكاد لا يرى من بعيد. أما العباءة وغطاء الوجه والشيلة التي أسدلتها بترتيب على كتفيها، فمكوية بعناية بالغة. حذاؤها أسود نظيف وأنيق.. جواربها سوداء شفافة زادت بشرة قدميها بهاءً. وقامتها ليست ممتلئة.. إنها أقرب للنحافة". وكلما تحرّكت الفتاة حاول أن يصطاد بنظره أي جزء منها يمكن أن يراه. وكلما تملّكته رغبة في الاقتراب والتحدث إليها ابتعد عنها أكثر

وذهب إلى جزء آخر من المكتبة.

مها تراوح مكانها وكأنها تريد أن ترى الرجل الذي كتب لها هذه الرسالة. وحين أصابها اليأس حملت كل ما جمعته من كتب ودفاتر وأقلام ملونة واتّجهت لدفع الحساب والعودة إلى البيت.

ذهبت إلى المدرسة في صباح اليوم التالي وأخبرت صديقتها فوزية بما حدث، وأطلعتها على الورقة الصغيرة فقالت فوزية:

– هذا أسلوب جديد في المعاكسات لم نسمع به من قبل. انتبهي يا مها.. أنت معلمة. انتبهي من أن يلعب بك أحد المراهقين.

أرادت مها أن تؤكّد لها بأنه شاب ناضج وليس مراهقاً كما تقول، لكنها لا تذكر ملامحه. بل ولم تنتبه حتى لوجوده إلا حين وضع الورقة وانصرف بسرعة. لكن.. لو أنه مراهق لوضع رقم هاتفه بدلاً من أن يخطّط ليعطيها كتاباً نفد من الأسواق. علاوة على أن المراهق لن يقتني ديوانا لشاعرٍ بقامة محمد الثبيتي.

لم تقتنع فوزية بما قدّمته لها مها من معطيات. ولا تدري مَن هو هذا الشاعر الذي لن يقرأ له إلا رجل ناضج حسب زعم مها. تساءلت فوزية عن علاقة النضوج بالدواوين. فوزية متأكدة من أن أباها وإخوتها كلهم نضجوا دون أن يمسكوا ديواناً بأيديهم.

لقد فشلت مها في إقناع صديقتها بأن الرجل الذي كتب لها الورقة في المكتبة لا يريد شيئاً سوى أن يقدّم لها كتاباً. وظلّت فوزية تؤكّد لها أن الرجال رجال، سواءً كانوا كباراً أو صغاراً، كلهم صنف واحد. همهم الإيقاع بفريسة.. التسلي بقلب فتاة.. الوصول إليها عن طريق دغدغة مشاعرها. هذا ما تعتقده فوزية وتصرّ عليه.

كل هذه التحذيرات التي قدّمتها فوزية لم تجدِ نفعاً. فبمجرد أن

جلست مها إلى مائدة الغداء مع أسرتها أخذت الإذن من أبويها من جديد للرجوع إلى المكتبة التي ذهبت إليها بالأمس. مدعيةً أن ما اشترته للمدرسة لم يكن مناسباً.

انطلقت مها مع سائقها إلى المكتبة بعد صلاة العصر مباشرة. تعرف أنها هذا اليوم ذهبت مبكرة إذ لم تحن الساعة التي كانت فيها عصر أمس في هذا المكان. لأنها تريد أن تراه وهو يضع الكتاب بالقرب من الباب. لكن.. خيبتها شديدة.. أو.. فرحتها طاغية.. لم يتحدّد شعورها بالضبط.. فها هو كيس بلاستيكي شفاف على الأرض مرتكز على الحائط بجوار باب المكتبة، ويظهر من خلاله الديوان واضحاً. لقد سبقها إذاً. "الشارع يعجّ بالسيارات لكن لا يهم لن ينتبه أحد".. هكذا قالت لنفسها ثم قفزت بسرعة وعادت إلى مقعدها في السيارة والكيس في يدها. ويدها الأخرى على قلبها لشدة شعورها بخفقانه. أمرت سائقها بأن ينطلق بها إلى البيت.

ألقت التحية على والدتها وأختيها وكن يتابعن مسلسلاً تلفزيونياً في صالة الجلوس ثم قطعت الصالة لتصل إلى السلم وتصعد إلى حجرتها قبل أن تسمع رداً على سلامها. جلست بسرعة على طرف السرير بعد أن خلعت عباءتها. بدأت تقلّب صفحات الديوان. وقبل أن تقرأ أذهلها أن يكون الديوان معطراً. أعجبتها رائحة العطر الرجالي الذي تسلّل إلى أنفها. تساءلت: "كيف عطّره.. هل من المعتاد أن يعطّر الإنسان كتبه..؟ ربما كان العطر في يديه حين أمسك بالديوان.. أو أنه رشّ العطر على الديوان متعمداً من أجلي..؟"

بدأت تقرأ. وعندما وصلت إلى القصيدة التي بعنوان (برقياتُ حبٍ إلى غائبة) لاحظت وجودَ خطٍ تحت بعض الكلمات بالقلم

الرصاص.. "ترى هل هذه الخطوط قديمة.. أم أنه خطّطها البارحة..هل هي رسائل لي أنا"..

ثم قرأت القصيدة بتنغيمٍ عذب:

أجيء إليكِ..

مع الغيث أهمي

وأبذر بين جراحك اسمي

أشق إليكِ..

هموم الحصاد

وخوف السنابل

أشق إليكِ..

طموح الجراد..

عقوق البيادر..

جوع المناجل

أزفَ إليكِ..

تهاني الفصول

غناء الحقول

وشوق القوافل

أجيء..

وفي قسماتي

يعرش كرم

ويثمل نخل

وتغرق في خطواتي سواحل

أجيء إليكِ..

أرتّل بين يديك القصيدة

أجيئك من شاطئ الأمس

بالذكريات السعيدة

أخبِّئ بين ضفائرك

اليوم..

والغد..

والحلم..

والأغنيات

أنا حلمك الذهبي.. أنا

أنا همك الأزلي.. أنا

أنا لحنك البدوي.. أنا

أنا فرح الدمع في مقلتيك

أنا وهج الوشم في وجنتيك

وأنت الشباب

وأنت السراب

وأنت العذاب

وأنت أنا.

اجتاحتها قشعريرة لذيذة. ثم شعرت بأناملها ترتجف وكاد الكتاب يسقط من بين يديها حين لمحت في الصفحة التي تلي القصيدة اسم عبد الله بالقلم الرصاص ورقم هاتفه. "هو يريدني أن أتصل إذاً..والخطوط التي تحت الكلمات السابقة رسالة لي أنا.. والعطر

الذي دوّخني تعمّد رشّه على الديوان.. تُرى من هذا الرجل؟ وعلى ماذا يدلّ تصرفه؟.. هل هو لئيم جداً.. أم ذكي جداً..؟ ربما.. ربما هو رقيق جداً".

بقي السؤال دون إجابة. تملّكتها الحيرة ودارت برأسها الأفكار. أكملت قراءة الديوان ثم عادت إلى الخطوط التي تحت بعض أبياته وردّدتها من جديد.. تأمّلت معانيها.. نظرت إلى الرقم خلف القصيدة.. ونظرت إلى الهاتف بقرب سريرها. قامت إلى شنطة يدها وأخرجت منها الورقة الصغيرة التي كتبها عبد الله بالأمس وخبأتها داخل الديوان. ثم انتبهت إلى طرقاتٍ خفيفة على باب حجرتها عندما جاءت خادمة المنزل تطلب منها النزول لتناول طعام العشاء مع أسرتها.

كادت تصرخ متسائلة عن الوقت. ظنّت أنها للتو عادت من المكتبة. كيف مرّت الساعات بهذه السرعة. والتفتت إلى ساعة معصمها فوجدتها التاسعة مساءً. هل سرق الديوانُ وقتَها.. أم سرقه التفكيرُ في من أهدى لها الديوان، ورقم من أهدى لها الديوان..؟

3

ربما ساهم الطلاق في أن تسترجع أسماء ذكرياتها القديمة فتجلس وحدها وتتأمّل ما فات. تذكر جيداً تأثرها منذ أن كانت في الصف الرابع الابتدائي بإحدى معلماتها. إذ آمنت وهي الطفلة الصغيرة بأن معلمتها على حق في كل ما تقوله. كانت المعلمة تضعها على أول طريق الهداية كما أخبرتها. كانت ترشدها إلى الصواب وتعلّمها ما ينفعها لتكون مسلمة صالحة مستقيمة. أخبرتها بالعذاب الذي يطال المذنبة في قبرها والعذاب الذي ينتظرها في سقر يوم القيامة. أخبرتها بأن حسابها عسيراً إن لم تلتزم بدينها وتراقب الله في كل قولٍ وفعل. سمعت الطفلة كثيراً عن درجات العذاب في القبر وما بعد القبر. قالت لها معلمتها: في القبر ثلاث مراحلٍ من العذاب. المرحلة الأولى يضيق القبر حتى تختلف أضلاع من فيه وتتداخل، والثانية يُوقد عليه القبر ناراً فيتقلّب على الجمر ليل نهار، والثالثة يسلّط عليه في قبره ثعبان اسمه الشجاع الأقرع عيناه من نار و أظفاره من حديد، طول كل ظفر مسيرة يوم، يكلم الميت فيقول: أنا الشجاع الأقرع وصوته مثل الرعد وكلما ضربه ضربة يغوص في الأرض سبعين ذراعاً، فلا يزال في القبر معذّباً إلى يوم القيامة.

سيطر الخوف على الطفلة أسماء ورأت القبر وعذابه في أحلامها. صار خوفها من الثعابين يجعلها تبلّل فراشها كل ليلة. وظلّت مشكلة تبولها وهي نائمة ترافقها لسنوات. التزمت بكل تعاليم معلمتها. حافظت على صلواتها في أوقاتها. لم تلمس بيدها مجلةً ولم

تستمع إلى أغنية ولم تنظر إلى صورة. ارتدت الحجاب الكامل وغطّت وجهها منذ أن كانت في الصف الخامس الابتدائي. على أن معلمتها لم تفرد لها الحديث وحدها. بل كانت نصائحها تشمل جميع طالبات الفصل. لكن ولسبب تجهله أسماء، وجدت نفسها أكثر الطالبات تأثراً وأشدهن خوفاً من العذاب وأحرصهن على اتباع توجيهات معلمتها.

ثم مرّت السنوات ونسيت أسماء تعاليم معلمتها شيئاً فشيئاً عندما انتقلت إلى المرحلة المتوسطة والثانوية. بدأت تنسجم مع زميلاتها في المدرسة. تابعت مثلهن ما يتابعن من مسلسلات على قناة التلفزيون السعودي. واستمعت إلى ما تقدّمه إذاعة الرياض من برامج ومسلسلات إذاعية. وتحدّثت معهن عن وسامة بعض الممثلين أو لاعبي الكرة. وحدّثتها نفسها كثيراً عن جارهم طارق، ذلك الشاب الصغير الذي كلما خرج من بيت أهله التفت إلى بيت أسماء وهي تراقبه من النافذة.. تمنّت أن تتحدّث معه. أخبرت صديقاتها عنه. ضحكن من توترها لمجرد التفكير في محادثته. لكنها وبمجرد دخولها كلية التربية في أبها ووجدت فيها أساتذة يميلون إلى التشدد في ذلك الوقت. عادت بسرعة إلى ما تعلّمته عندما كانت صغيرة. وبرغم أنها قد اختارت اللغة الإنكليزية للدراسة إلا أن حرصها على حضور المحاضرات الخاصة بالمواد الدينية المكثفة صار شديد.

امتلأت حجرتها بأشرطة الوعظ التي يستخدم فيها الوعاظ والخطباء مفردات التهديد والوعيد بأسلوب استعراضي يفزع الضعفاء من أمثال أسماء. ولم تمضِ الأربع سنوات التي قضتها في الكلية إلا وقد أصبحت على ما هي عليه فيما يخص فهمها للدين وأثّر هذا الفهم

على حياتها كلها. وبرغم طيبتها الشديدة وأدبها الجم لم تحتمل مسايرتها حتى التخرج إلا القليلات. فكل ما تفعله الطالبات حرام أو مكروه عندها.

تزايدت كآبة أسماء يوماً بعد آخر. ولذا صارت تهرب من كل ما يؤلمها إلى الصلاة وقراءة القرآن الكريم. تهرب من وحدتها القاتلة ومما تأمرها به نفسها الأمّارة بالسوء. تهرب من عواطفها ورغباتها التي يسوءُ أسماء أن تعتمر في داخلها تلك العواطف المتأججة والرغبات القوية. تهرب من التفكير في مستقبلها. تهرب من رغبتها في الجلوس مع الصديقات، لما في الجلوس معهن من الاستماع إلى النميمة والغيبة أو على الأقل إضاعة الوقت فيما لا ينفع. تهرب من رغبتها في الخروج إلى الأسواق لما فيها من الآثام والذنوب. تهرب من الانشغال بالدنيا التي تلهي المؤمنة الحقة عن التحضير ليوم الحساب. "الوحدة خير من جليس السوء" هكذا قالت لنفسها. وبما أن الجليس الصالح في رأيها أصبح نادراً فضّلت العزلة على الاختلاط بالناس. أما الزواج فبقدر ما حمدت الله الذي خلّصها من عبد الله ترجوه أن يرسل لها رجلاً يعرف دينه ويخاف ربه.

تستيقظ أسماء كثيراً قبل الفجر بنصف ساعة. وبرغم شعورها بالبرد الشديد في شتاء أبها تترك فراشها الدافئ لتتوضأ وتصلّي ركعتين أو أكثر ثم تقرأ ما يتيسّر من القرآن الكريم في انتظار صلاة الفجر، وبعد هذا تتأهّب للخروج إلى عملها كمعلمة للغة الإنكليزية في إحدى المدارس المتوسطة، ما عدا يومي الخميس والجمعة إذ تعود إلى النوم بعد صلاة الفجر مباشرة. وها هي اليوم تصلّي الفجر بخشوع عظيم ثم تنام فترى فيما يرى النائم أن ملاكاً احتضنها من

خلفها وهي واقفة في بستان شديد الخضرة وطار بها دون أن ترى وجهه لكنها تشعر به يمسك بها ويرتفع عن الأرض وعندما نظرت إلى الأسفل رأت في المكان الذي كانت تقف فيه ثعباناً ضخماً لولا الملاك لابتلعها. ثم استيقظت من النوم.

اتصلت بكثير من المشايخ ورجال الدين، تستفسر منهم تعبير ما رأت فأكد لها أغلبهم بأن الله أنجاها من أمرٍ سيئ كاد يهلكها لولا لطف الله. وفي كل مرة يُفسَرُ لها الحلم توقن بأن طلاقها من عبد الله كان لخيرٍ أراده الله. ولأنها لا تنام إلا على وضوء زادتها أحلامها التي تراها دائماً وهي على طهارة يقيناً على يقينها بأن القادم أفضل. وخصوصاً تلك الأحلام التي تراها بعد صلاة التهجد.

تعتقد أسماء بأنها ليست معلمة سلبية مع الطالبات كبعض اللواتي يعطين الدروس ولا يحرصن على تثقيف الطالبات دينياً. إذ كانت تستغل جزءاً من كل حصة لتحقّق الهدف الوجداني فتشرح للطالبات معنى حديثٍ أو آية. أو تورد لهن موقفاً أو موعظة أو حكاية قرأتها في كتاب من الكتب الدينية التي تعجّ بها مكتبة المدرسة. أو مما تسمعه في أشرطة الخطباء والوعاظ. ثم انشغلت بتحفيظ القرآن الكريم للطالبات وصارت تعطي الدروس الإنكليزية المقرّرة بسرعة فائقة وتخصّص ما يزيد على نصف وقت الحصة لتستمع إلى حافظات القرآن الكريم أو الأحاديث، من طالباتها مؤكدة لهن أن دراسة القرآن والسنة أولى بوقت المسلمة والمسلم من تعلم الإنكليزية وسائر العلوم الدنيوية. وبرغم كل ما تفعله من أجل تثقيف الطالبات دينياً إلا أنها تدرك تمام الإدراك بأن المديرة والمساعدة وبعض المعلمات في المدرسة يضطهدنها ويخططن لإيذائها. وبرغم

تأكيد المديرة لها بأنها لا تودّ لها إلا الخير ظلّت أسماء على يقين مما تعتقد بشأنهن.

كان من السهل أن تنجح طالباتها بدرجات عالية وذلك لأنها تحدّد معهن ما يجب عليهن استذكاره استعداداً للامتحان وتختصر كثيراً من الدروس المقرّرة فلا تُبقي منها إلا ما سيكون ضمن أسئلة الامتحان.

استيقظت ذات سحر بعد أن رأت ذات الملاك الذي رفعها عن الثعبان في حلمٍ سابق. رأته الليلة يكلمها دون أن تتبيّن ملامحه. رأته على هيئة نور أبيض شديد، وقد تشكّل النور كجسد له أجنحة كبيرة. كلّمها هذه المرة. قال لها: أنت نقية يا أسماء، لم تخطئي يوماً. أنت لست كالبشر، أنت كالماء المقطر وأشد نقاءً.

أفرحها ما قال كثيراً. لكنه ذكّرها بأن الله لم يخلقها لهذا بل خلقها لتخطئ فتتوب. ولو أن الناس بلا ذنوب لذهب الله بهم وأتى بغيرهم، يخطئون فيتوبون ويتوب الله عليهم. أحزنها قوله وحيرتها كلماته. بكت في نومها لفرط حيرتها، وتساءلت أمام الملاك: هل عليّ أن أقترف الذنوب لكي يرضى الله عني أم أجتنبها؟ ثم استيقظت من نومها مذهولة مما رأت.

لم تجتمع أقوال المشايخ ومفسري الأحلام حول هذه الرؤيا كما في رؤاها السابقة. لقد تضاربت الأقوال واختلفت التعابير. وغرقت أسماء في أوهامٍ تملّكتها.

4

ظلّ عبد الله في حجرته لا يغادرها أبداً، يشرب الشاي أو القهوة ويقرأ أحياناً ويعزف أخرى وينتظر. تأمل الهاتف أكثر من مرة ليتأكد من أن السماعة موضوعة بشكل صحيح ومن أن صوت الجرس مفتوح.

وعندما تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل أيقن بأنه لم ينجح في محاولته. عزّى نفسه ببعض الكلمات وهو يتمدّد في سريره: "ربما هي متزوجة.. لكنها تبدو شابة صغيرة.. كيف أقول (تبدو) ولم يبدُ منها شيء؟!.. لكن.. هي رشيقة.. المتزوجات في مجملهن.. لا.. ليس ضرورياً.. كثيرات يحرصن على رشاقتهن بعد الزواج.. ربما هي مخطوبة.. ربما لا تريد أن تتصل وكفى.. ثم ماذا أنتظر؟ ومن أنتظر؟ ألا يمكن أن تكون غبية.. أو سخيفة.. أو أنانية.. أو ساذجة.. أو مغرورة.. أو سطحية.. أو أي شيء آخر غير تلك التي رسمتُ لها صورةً في عقلي.. لا يكفي أن أراقب ما تشتريه من كتب لكي أحكم عليها.. ربما أنا على خطأ. لا يكفي أبداً أن تقرأ إحداهن الشعر لتصبح ذكية.. حالمة.. طموحة.. ودودة.. هادئة.. محبة.. مثقفة.. و... ولكن.. صوتها كان يفيض عذوبة وهي تسأل الموظف عن الديوان.. خطواتها في المكتبة كانت رشيقة.. جميلة.. واثقة.. متزنة... ربما أنا واهم.. هل يصوِّر لي عقلي حتى الاتزان والثقة والجمال في خطوات امرأة بالكاد رأيت كفيها فقط؟؟! هذا لا يعقل..."

نام عبد الله وفي داخله قليل من الشعور بالإحباط لكنه استيقظ

إنتظار

على رنين هاتفه. نظر إلى ساعته قبل أن يرد وكانت تشير إلى الثالثة صباحاً ثم تذكّر أنه كان ينتظرها.

التقط سماعة الهاتف وقال:

- ألو.

ولم يجبه أحد.. فكرّر:

- ألو.

جاء صوتها متردداً هامساً، ينساب بذات العذوبة التي سمعها في المكتبة:

- ألو...

- أهلاً.

- أعتذر.. لأني أيقظتُكَ كما يبدو لكن.. كنت.. كنت متردّدة في الاتصال.

بدا له توترها فأجابها:

- أهلاً بكِ.. لا تعتذري.. كنت أنتظرك.

بقيت مها على الهاتف صامتة وعبد الله ينصت إلى أنفاسها، وعندما أيقن بأنها لن تبادر بالحديث قال:

- تحبين الشعر؟

أحسّ بأن سؤاله ليس هو البداية الجيدة في مثل هذا الوقت وهذا الموقف لكنه لم يجد ما يبدأ به.

- نعم.. وأحفظ الكثير من القصائد..

وعاد الصمت. استوى عبد الله جالساً في سريره طارداً النوم من رأسه لكي يرتّب أفكاره ويدير حواراً يجعلها لا تنفر منه ثم تغلق

الهاتف ولا تعود ثانيةً. على أن الحديث مع النساء عبر الهاتف ليس بالأمر الجديد عليه.. لكن ها هو الآن يشعر بالبهجة لاتصالها.. ويودّ أن يستبقيها.

- أظن أنك طالبة. ماذا تدرسين؟

- لا.. أنا تخرّجت العام الماضي.. أعمل معلمة.

- أنت أيضاً من خريجات 1406؟

- ماذا تقصد بأيضاً..؟

- حكاية قديمة بعض الشيء.. لا تشغلي بالك الآن. سأخبرك فيما بعد، لكن ما تخصصك.. إن كان لا يزعجك أن تخبريني؟

- ماذا تتوقّع؟

صمت قليلاً ثم قال:

- اشتريتِ روايات ودواوين وبحثتِ عن ديوان الثبيتي.. أتوقّع أن تكوني معلمة لغة عربية.

أنصت بسعادة إلى شهيقها الخافت قبل أن تقول:

- كنت تراقبني إذاً وتعرف ماذا أشتري!! ثم.. ألا يحق لمن درست الكيمياء قراءة الروايات والشعر؟ لكن قل لي لماذا وضعت خطوطاً تحت بعض الكلمات في الديوان؟

- أخبريني باسمك ثم أجيبك.

أربكها السؤال.. أخافها. خطر ببالها تلك اللحظة خاطر يقول: "ماذا لو أنه كان واقفاً في سيارته عندما التقطتُ الكتاب من أمام المكتبة ثم تبعني وعرف بيتي.. ماذا لو هدّدني فيما بعد بأن يشوّه سمعتي إن لم أستجب لكل ما يأمر به.. ويلي.. سيقتلني أبي.. سأقتل نفسي قبل أن يفعل".

شعر عبد الله بخوفها فقال لها:

- آنستي لا تقلقي.. اسمك فقط.. لقد كتبتُ لك اسمي مرتين. هل أخبرك باسم أبي وعائلتي؟ اسمي عبد الله عبد الواحد مراد شوكت. ابحثي الآن في دليل الهاتف وستجدين الاسم صحيحاً ورقمي مسجّل معه.

وأمام اقتناعها بصدقه واندفاع كلماته القوي نحوها أغمضت عينيها ونطقت بصعوبة:

- اسمي... مها... أخبرني الآن.. لماذا وضعت خطوطاً في الديوان؟

- هل ستصدّقين ما سأقوله لك يا مها؟

- قل وسنرى.

- بعد أن رأيتكِ في المكتبة عدت إلى الديوان أقرأ فيه فشعرت بأني أنا من كتب بعض كلماته عنك.. لك.

- لي أنا؟!.. ومن أين تعرفني لتشعر بأنك تكتب لي شعراً؟

- دعينا لا نتحدّث عن هذا الأمر الآن.. سأخبرك لاحقاً؟

- أرجوك.. قل ما عندك.

- ليس عندي شيء.. غير أني أظن أن بيننا أشياء مشتركة.

- أنا وأنت! مثل ماذا؟

صمت قليلاً ليفكر.. ثم قال:

- أنا وأنتِ نسكن أبها.. ألا يعدّ هذا أمراً مشتركاً؟

ضحكت مها فتابع:

- لا تقولي إن آلاف البشر يسكنون أبها غيرنا.. لأنهم الآن نيام ونحن مستيقظان.

- دعك من هذا وهات شيئاً آخر نشترك فيه.

- أنا وأنتِ أحببنا ذات الديوان لذات الشاعر. زرنا ذات المكتبة في ذات اليوم.

ظلّت تضحك مما يقول وهو يحاول مازحاً إقناعها بما بينهما من أمور مشتركة.

- افتحي النافذة وانظري إلى القمر الآن وأنظر إليه أنا أيضاً فيصبح النظر إلى القمر في ذات اللحظة أمراً مشتركاً بيننا.. ما رأيك؟ أليس من الرائع أن نشترك في القمر؟

واستمرّ الحديث بينهما إلى أن وصل إلى بعض جوانب حياتهما. أخبرها بأنه أنهى زواجه من فتاة طيبة قبل موعد الزفاف لأنهما لم ينسجما معاً. تحدّثا عن المجتمع وعاداته.. الطقس وبرودته.. الشعر وعذوبته.. الروايات.. والهوايات.. قال لها بأنه يهوى السفر والقراءة والرياضة وكتابة الشعر أحياناً. يجيد العزف على العود. عمره أربع وثلاثون سنة. تخرّج قبل سنوات من جامعة البترول والمعادن ويعمل الآن مهندساً في شركة الكهرباء. يسكن مستقلاً في الدور الأرضي ويسكن أبواه في الدور العلوي من ذات الفيلا وبين الدورين في نهاية السلم باب يستطيع عبد الله إغلاقه أو فتحه متى شاء. يصعد إليهما في وقت الوجبات غالباً ليتناول طعامه معهما. له أخ وثلاث أخوات كلهم أكبر منه وكلهم متزوجون وعندهم أولاد صاروا في المرحلة الثانوية. ثم وعدها بأن يعطيها الكثير من الكتب التي يحضرها من خارج البلاد كلما عاد من سفره. ووعدها أن يغنّي لها إن وافقت على أن تغنّي معه. سألته:

- تقصد أنك تستطيع تهريب الكتب الممنوعة؟

- في كل سفرة أشتري كتاباً واحدا فقط، أو اثنين إن بالغت. الكثير من الكتب يلفت النظر لكن كتاب واحد يمكن تمريره بين الأغراض الشخصية.

وبرغم أن جميع أفراد أسرتها قد خلدوا إلى النوم إلا أنها قد أكّدت له مراراً أثناء حديثهما بأن عليه أن يصمت تماماً وأن يغلق الهاتف مباشرة في حال ارتفعت السماعة الأخرى التي في صالة الجلوس. فأكّد لها حرصه على ألا يصيبها مكروه. شعرت بنبرات صوته الصادقة وهو يؤكّد لها خوفه عليها أكثر من خوفها على ذاتها.

استمتعت بالحديث معه واطمأنت إليه. وكلما نظرا إلى الساعة وجدا أن الوقت مبكراً على إنهاء المكالمة إلى أن صارت الساعة السابعة والنصف صباحاً حينها أنهيا المكالمة على وعدٍ من مها باتصال جديد.

أغلقت الهاتف ونامت بعد أن قرّرت الغياب عن مدرستها ذلك الصباح لأن الوقت قد تأخر كثيراً ولأن النعاس يملأ جفنيها ولأن شعوراً لم تجرّبه من قبل يملأ وجدانها. أما عبد الله فقد ارتدى ثيابه وهرول إلى عمله والحبور يملؤه.

5

استيقظت مها في الرابعة عصراً على رنين الهاتف وعندما أجابت إذا بصديقتها فوزية تريد الاطمئنان عليها وتستطلع سبب غيابها فأكّدت لها مها أن صداعاً داهمها الليلة البارحة وحرمها النوم طوال الليل. برّرت غيابها أمام والدتها بذات المبرر الذي قالته لفوزية، ثم بدأت تسترجع سهرتها الممتعة، وكم أسعدها الحديث مع عبد الله. "لا بد أنه نائم الآن فقد قرّر أن يذهب إلى عمله في الصباح" هكذا حدّثت نفسها. "سأنتظر ساعة أخرى ثم أتصل به". لكنها لم تتماسك أكثر من ربع ساعة ثم بدأت بالضغط على أرقام الهاتف الذي في الصالة لتضمن عدم استخدامه من قِبل أحد من أهلها وعندما أجاب قالت له:

– ألو.. أنتِ نائمة.. عودي إلى النوم وسأتصل بعد ساعة.

أدرك عبد الله أن حولها أحد من أهلها لأنها تحدثت إليه بصيغة المؤنث وجاء صوته النائم يرجوها:

– لا تغلقي الهاتف.. دعيني أنام وأنا أستمع إلى أحاديثك.

استمرت مها تحدّثه بصيغة المؤنث وقالت له:

– هل أنتِ جادة؟ لا أعرف كيف أتحدّث دون أن تجيبيني؟

– أعطيني رقم هاتفك إذاً.. وسأتصل بك أنا حين أستيقظ.

ظلّت صامتة.. فعرف أنها لن توافق على أن تعطيه رقمها. فقال:

– مها.. أرجوك.. لا تضيعي مني.

أسكرتها عبارته. أشعرتها بحجم تمسكه بها. اقتنعت بأنه لا يتسلّى بها. ولا ينوي ذلك. قالت:

- سأتصل بكِ.. أعدُكِ.. نامي الآن.

عاد عبد الله إلى نومه. وظلّت أصداء جملته "لا تضيعي مني" تتردّد في أرجاء روحها.

استيقظ على رنين الهاتف من جديد وكانت الساعة السادسة مساءً. قال بلهفة:

- يا هلا وغلا.

قالت:

- أعرف أن عليّ أن أترككِ لتنامي أكثر لكن.. ها أنا أتصل.

ارتاح إلى عبارتها، أدرك بأنها تودّ الحديث معه كما يودّ هو.

- مها.. هل يجلس أحد إلى جوارك؟

- لا.. أنا في صالة الجلوس وصوت التلفزيون يغطّي صوتي وغرفتي مغلقة بالمفتاح والمفتاح معي وأمي مشغولة ببعض النسوة المسيارات عندها، وبرغم كل هذا أفضل أن أتكلم معكِ هكذا، احتياطاً فقط.

- حدّثيني بأي صيغة تشائين.. المهم أن تحدّثيني؟

ابتسمت لعبارته ولم تُجب. فعاد ليقول:

- مها.. راجعتُ بيني وبين نفسي حديثنا البارحة وشعرت بأنني مندفع جداً نحوك وأخاف أن يزعجك اندفاعي.

- لستِ مندفعة.. لقد سألتُكِ كثيراً ولم تجيبي، ولو كنتِ مندفعة لأخبرتِني دون أن أسألكِ حتى.

- أخبرك بماذا؟

- هل استمعتِ إلى سؤالي عن الديوان بالصدفة عندما كنا في المكتبة؟ أم كنتِ تراقبينني؟ وهل تعطين كل امرأة تصادفينها في مكتبة ما تريده من كتب؟

- هل يمكن أن أؤجل الإجابة؟

- لماذا؟

- لأني أريد أن نتحدّث عن أشياء عديدة تكسبك الثقة فيّ. تعرفك عليّ أكثر فتدركين كيف أفكر دون أن أشرح موقفي.

استمرّت مها تتصل بعبد الله كل يوم. ثم أصبح الاتصال عدة مرات في اليوم. صارا لا يتركان شيئاً لا يتحدثان عنه. حتى برامج التلفزيون، يتفقان معاً على متابعة ما يروقهما. تناقشه فيما تقرأ وتسعد كثيراً بحواراته الرصينة وآرائه المتفتحة. امتثلت لما يقول بخصوص ما تشتري من كتب وصارت تقرأ أكثر وأكثر لكي تتمكّن من متابعة ما يقوله بوعي واقتدار. صارا ينامان فيوقظ أحدهما الآخر. يخرج فيخبرها عن كل تحركاته. يعزف وتنصت عبر الهاتف إلى غنائه.

سألها لمن تسمع بعد أن عرف بأن والديها لا يحرّمان الغناء ولكن لا يحبذان تربية أبنائهما عليه. أو ربما لا يكترثان للأمر لكنهما على كل حال لم يشتريا شريطاً لمطربٍ أبداً. وحين سألها عن بعض الأسماء الكبيرة أخبرته بأنها تكاد لا تتذكّر اسم أغنية من أغنيات فيروز أو أم كلثوم.

قالت:

- أنا أحب محمد عبده وطلال مدّاح.

- ومن منّا لا يحب محمد عبده وطلال مدّاح. لكني أسألك عن فيروز وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد.

- كنت أسمع بعض أغنياتهم في التلفزيون قبل أحداث الحرم المكي.. وبعد أن توقف عن البث لهم منذ عام 1400هـ لم أعد أستمع.

قال ضاحكاً:

- إذاً هذا خطأ التلفزيون.

قالت جادة:

- نعم خطأ التلفزيون. إن لم يكن أخطأ بحقي كمشاهدة فبحق نفسه لأنه رضخ لتعليمات جهيمان وللمدرسة التي ينتمي إليها. وبرغم أن جهيمان قد قُتل إلا أنه ترك وراءه من يتابع تنفيذ أوامره. ترك تلامذةً مخلصين يخططون...

- واو.. ملاحظة دقيقة يا مها بشأن انصياع التلفزيون لضغط جهيمان وجماعته.. لكن لا تبالغي فيما يخص أمر تلامذته.. ليس سوى جاهل متعصب تبعه مجموعةٌ من الجهلة المتعصبين.

- الأيام بيننا.. هم جهلة. نعم.. هم كذلك.. لكن هذا لا يعني أن الجهلة لا يدمّرون ما حولهم.. سيسعون إلى تحقيق مرادهم.. وإذا لم يتغيّر وعي الناس سترى ما سيفعلون غداً.

- تستنتجين هذا بناءً على ما ترينه من معطيات. لكني أظن أنهم يمسكون بطرف شعرة معاوية وسيرخونها إن شدتها الحكومة ويشدّونها إن أرختها لهم. سيحافظ الطرفان على الشعرة لأنهما يحتاجان إلى ذلك. لا أتحدّث عن جهيمان وإنما عن المتشددين بشكل عام على اعتبار أن ملّة الكفر واحدة. أما التمرد الذي قادة جهيمان

فليس سوى تطور غير متوقع للاستثمار الذي حقّقه الملك فيصل حين رحّب بالأخوان المسلمين لإضعاف عبد الناصر في الستينيات. لكن.. نستطيع تجاهل ما يفعلون الآن ونعود إلى الغناء. أليس الحديث عن الغناء أجمل من الحديث عن تيارات متطرفة..؟

– بالتأكيد.. ماذا كنا نقول؟

– دعينا نبدأ بشراء بعض الأشرطة. وبما أنك تحبين الشعر وتحفظين الكثير منه فعليك أن تبدئي بأغنية (غنّيتُ مكةَ) لفيروز. عديني الآن أن تستمعي إليها مرتين. اسمعيها بقلبك يا مها وليس بأذنيك.. ستشكرينني على انتقائي..

– أعدُك.

بسرعة كتبت مها اسم الأغنية على ورقة صغيرة ودفعت بها إلى السائق مع المبلغ المطلوب. وخلال نصف ساعة كانت مها تنصت إلى فيروز تشدو:

غنّيتُ مكةَ أهلها الصيدا والعيدُ يملأ أضلعي عيدا

فرحوا فلألأ تحت كل سما بيتٌ على بيت الهدى زيدا

وعلى اسم رب العالمين علا بنيانُهم كالشهب ممدودا

يا قارئ القرآن صلّي لهم أهلي هناك وطيب البيدا

من راكعٌ ويداه آنستا أن ليس يبقى البابُ موصودا

أنا أينما صلّى الأنام رأتْ عيني السماء تفتّحت جودا

لو رملة هتفت بمبدعها شجواً لكنت لشجوها عودا

ضجّ الحجيج هناك فاشتبكي بفمي هنا يا وُرْقُ تغريدا

وأعز ربي الناسَ كلّهمُ بيضاً فلا فرقتَ أو سودا .

لا قفرةٌ إلا وتخصبها إلا ويعطى العطر لا عودا

الأرض ربي وردةٌ وُعِدتْ بك أنت تقطف فارو موعودا

وجمالُ وجهك لا يزالُ رجىً يرجى وكل سواه مردودا

عادت مها إلى الهاتف لتخبر عبد الله بأن تأثرها وصل حد البكاء بعد أن استمعت إلى الأغنية مرتين وفي الثالثة كتبتها في كراسٍ خاص بالأغنيات.

– ما هذه الأغنية.. يا الله.. كلمات تهزّ الوجدان ولحن في غاية التطريب.. وصوت كأنه صوت ملاك. كلها تجتمع في أغنية واحدة..!! سبحان الله.

سُرَّ عبد الله من قدرتها على تذوق الأغنية. وكان قد وضع احتمالاً بألاّ تستسيغ هذه الألوان التي لم تعتد عليها. قال لها:

– الآن أستطيع أن أعطيك قائمةً بأسماء الأغنيات التي ستشترينها وتستمعين إليها جيداً.. تعرفين أغنية (كفي الملام) لشادي الخليج؟

– أظن أني سمعتها وأنا طفلة في التلفزيون.

– هذه الأغنية يجب أن تستمعي إليها بأعصابك.

– ولِمَ كل هذا؟

– لأنها للشاعر فهد العسكر؟

– ومن فهد العسكر..؟

– آه.. ما أكثر المظلومين والمنبوذين بغير ذنبٍ سوى التميز. سأخصِّص جلسةً كاملة على الهاتف لأحدثك عن هذا الشاعر الكويتي الرقيق وأقرأ لك بعض قصائده.. لكن اكتبي اسم الأغنية (كفي

الملام) مطلعها يقول:

كفّـــي المـــلام وعللينـــي فالشـــــك أودى باليقيـــنِ
وتناهبــت كــبدي الشـــجون فمــن مجــيري من شجوني
وأمضـّــني الـــداء العـــياء فمــن مغيثـــي مــن معينـــي

القصيدة طويلة جداً يا مها.. لكن المطرب انتقى عدداً من الأبيات، قصيدة ستبكيك بالفعل لو قرأتِها. واكتبي أيضاً (وُلِدَ الهدى.. وسلوا كؤوس الطلا) لأم كلثوم.. وإن لم تجدي أياً منها عند الأستديو فهي عندي. سأعمل لك نسخة ورتّبي أنتِ كيفية أخذها. يهمّني أن تسمعي أيضاً (الأطلال) لأم كلثوم.

– أظنك تختار الأغنيات الأصعب لأم كلثوم..

– لا.. أحاول أن أنتقي الأجمل.. لا تقلقي سنعرج على الآخرين.. نجاة الصغيرة.. مثلاً.. سأغنّي لك أغنيتها (عيون القلب) لاحقاً وسترين كم هي رائعة.. لكن دعينا نبدأ ونحفظ.

– ألا تحب الأغاني الخليجية..؟

– بالتأكيد أحبها كثيراً، لكن لم أذكر منها إلا (كفي الملام) لأني أعرف أنك مستمعة جيدة لعمالقة الطرب في جزيرة العرب.

كتبت مها أسماء الكثير من الأغنيات. والكثير من الكتب. وصارت لا تقرأ وحسب. بل وتدوّن بعض الملاحظات لتناقش عبد الله أو تسأله.

اكتشف عبد الله أن في النساء من استطاعت أن تمرّر الموروث عبر غربالها الخاص. أن تقبل أو ترفض ما تقرأه وتسمعه. أن

تتساءل ولا تستسلم لكل ما لقنوها. لقد ظنّ وفق ما لاحظه على والدته وأخواته، وعلى بنات أخواته.. وزوجة أخيه، أن النساء متلقيات دوماً. كما أدرك هذا من خلال علاقاته المتعددة بالنساء ومن خلال ما يعرفه عن حال المجتمع كله. لا يستثني من قريباته إلا أريج ابنة أخيه.. لكنه يعلم أن نجاتها كانت بفضله هو لأنه كان يقنعها بعكس ما تقرأه في مقرراتها المدرسية عن المرأة وحقوقها. ارتاح لاكتشافه الجديد.

– مها كيف خرجت عن المألوف.. النساء متشابهات في مجتمعنا.. أو هكذا أعتقد. لكني أراك مختلفة.

– ماذا تقصد بتشابههن.. وفي ماذا اختلفتُ عنهن.

– أظن.. وأؤكد على أنني أظن.. أن الكثيرات يعشن الأيام كيفما اتفق. لا يُجدن التخطيط.. ولم ينعكس التعليم على حياتهن. ألاحظ أحياناً أن التي تجاوزت الثلاثين لم تنضج بما يكفي لتكون امرأة في الثلاثين. ظلّ تفكيرها وانفعالاتها كمن لم تتجاوز سن المراهقة. أنتِ مختلفة بالرغم من أنك درستِ في ذات المدارس وتلقيتِ ذات العلوم. وخبراتك تنحصر في البيت والمدرسة. وتقولين إنك لم تسافري خارج البلاد قط.

– نعم.. أنا لا أملك حتى جواز سفر. أنا لا أعرف من مدن المملكة سوى أبها ولم أغادرها منذ ولدت. ليتني أسافر.

ها هو الآن يكتشف أن مها فتاة استطاعت برغم التلقين الذي طالها كما طال الجميع أن تطوّر ملكة النقد في عقلها. وأن تحكم على الأشياء وفق رؤيتها الخاصة. وهذا ما شجّعه على أن يجمع من مكتبته عدداً من الكتب التي جلبها من خارج الحدود.

سألته:

- ماذا ستعطيني من كتب؟

- هل قرأتِ شيئاً عن أخوان الصفا؟

- لا.. الحقيقة أني حتى لم أسمع بهذا الاسم؟

- والوجودية.. هل قرأت عنها؟

- قرأت بعض النقد لها فقط.

- جمعت لك كتباً عن المعتقدات الدينية القديمة في الهند وبلاد الرافدين ومصر، وكتاباً لسارتر بعنوان الوجودية مذهب إنساني. بالإضافة إلى رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا.

ناقش عبد الله مع مها كيفية إيصال الكتب إليها. أخبرته مها عن تلهفها إلى قراءة ما انتقاه لها. لكنها لا تدري كيف تأخذها منه. ثم اقترح عبد الله أن يضعها في ظرف كبير مغلق ويكتب على الظرف اسم مها ويعطي حارس المدرسة والحارس بدوره يعطي زوجته المستخدمة وتكون مها في انتظارها بالداخل. سألها:

- مها.. من أثّر في تربيتك أكثر.. أبوك.. أم أمك..؟

- جدتي رحمها الله.

- أوه.. هذا جميل.. الجدات عندهن الركن الأكثر دفئاً في البيت. حدّثيني عنها.

- سألتها ذات يوم (جدتي هل أحببتِ.. هل جرّبتِ الحب..؟) فقالت لي: يا ابنتي ما من شجرة إلا وحركها الهواء. قلت لها: كل الأشجار يا جدتي تتعرّض للهواء والشمس.. لكن نحن نشبه نباتات الظل.. لسنا لشيء سوى الزينة.

علّق عبد الله:

- هذا صحيح.. ما من شجرة إلا وحرّكها الهواء.

سألها:

- وكيف أصبحت قارئة..؟ من عوّدك على حب الكتاب؟ ومتابعة ما ينشر.

- الصدفة فقط هي التي جرّتني إلى هذا العالم الممتع.. كنا في الصيف وقد نجحت من الصف الخامس للسادس عندما سكنّا هذا البيت الذي نحن فيه الآن. وقبل أن تنتهي الإجازة المدرسية كان أبي قد اشترى مكتبة ووضعها في جزء من البيت لم يكن يعلم ماذا يفعل به. إنه الجزء المقابل لمجلس الرجال. مساحة واسعة ولا تصلح لشيء.. إلا لمكتبة.

- إذاً فوالدك يحب القراءة.

- لا.. هو لم يفتح كتاباً واحداً منها إلى الآن ولا يدري ماذا تحوي كتب المكتبة.. لكن عندما قرّر ورثة أحد الرجال التخلص من مكتبته رأى أبي أنها مناسبة لذلك الجزء من البيت لأن خشب الأرفف جميل والكتب مرتبة بشكل أنيق. أذكر أني وقفت أتأمّل الرفوف الكثيرة والمنظمة. حيث اشترط والدي على العمال الذين نقلوها تركيبها بذات الكيفية التي رآها عليها. فاضطر العمال إلى ترقيم الأرفف وربط محتويات كل رف على حدة ثم وضع رقم الرف على كل مجموعة من الكتب ليعودوا ويضعوها في مكانها بالضبط. وبهذا صار عندنا مكتبة لا أحد يقرأ منها غيري. وقعت عيني أول مرة في ذلك الوقت على رواية العنكبوت لمصطفى محمود. في البداية كنت أظن أنه كتاب فيه صور حشرات أو حيوانات. لكني بدأت أقرأ..

وشدّتني الرواية. ثم توالت القراءات. ركّزت حينها على أرفف الروايات والمسرحيات ثم تنقّلت بين الأرفف بعد ذلك وحين أتيت عليها تقريباً بدأت أشتري الكتب.

- وماذا كان رأيك في العنكبوت؟

- حين كنت طفلة أذهلتني الرواية. لكن عندما قرأتها مرةً ثانية بعد أن أصبحت في الكلية اكتشفت أن الكاتب يضطر إلى إقحام الصدفة كثيراً لحل العقدة في روايته.

- ستجبرينني على العودة لقراءتها من جديد لكي أتيقّن من صحة نقدك لأني لا أذكرها. لكن من أعجبك واستمر إعجابك به إلى الآن من الذين قرأتِ لهم؟

- لا زلنا نتحدّث عن الروايات والقصص.. أليس كذلك.

- نعم.

- كثيرون جداً من أحببت كتاباتهم.. أحببت كل مسرحيات توفيق الحكيم.. قرأت كل ما كتب تقريباً.. وأعدت القراءة أكثر من مرة.. وتمنّيت لو أن إنتاجه أضعاف ما بين يدي.. بالإضافة إلى الروايات العالمية المترجمة..

- نأتي الآن إلى الكتب.. في أي مجال تفضلين القراءة..؟

انتبهت إلى كثرة أسئلته فقالت مبتسمة:

- هل تحقّق معي؟ أخبرني أنت كيف أحببت العود وكيف أحببت الكتاب.. وكيف تعلّمت الغناء.. حدّثني عنك؟

تغيّرت حياتهما مع الوقت. صارت البهجة ظاهرة عليهما دون أن يدرك أحد ممن حولهما مبرراً لكل هذا التفاؤل والسرور. ولم تعد مها قادرة على إخفاء سعادتها عن الجميع. كادت تخبر زميلتها فاطمة

عن الأمر لولا أنها تذكّرت أن فاطمة دائماً تنقل لها أخبار الأخريات وأسرارهن.. "إذاً ستتحدّث عني معهن أيضاً" هكذا قالت لنفسها. ثم انفردت بصديقتها فوزية في زاوية من غرفة المعلمات وأطلعتها على كل ما لديها. وبعد أن ازداد بريق عينيها وتنهّدت كثيراً وهي تردّد اسم عبد الله أثناء حديثها عنه، استمعت إلى لوم صديقتها وتحذيراتها من مغبة التورط في علاقة قد تدمّر مستقبلها في حال انفضح الأمر أمام أهلها أو أي شخص في المجتمع ولكن مها ظلّت على قناعاتها بأن عبد الله هو مَن تريد من هذه الدنيا.



مـهـا

هذي مها

والله كذا تخيلنا

يا بعد قلبي هي

6

تساهم أسماء في رفع مستوى أسرتها الاقتصادي إذ إنها بعملها كمعلمة تتقاضى في السنة الأولى من تعيينها ستة آلاف ريال شهرياً قد ساعدت والدها على تسديد ديونه وتجديد أثاث بعض الحجرات في بيتهم المتواضع. كما وتمكّن من شراء الثياب الجديدة والطعام الجيد لأفراد أسرته. وتمكّن أيضاً من ادخار بعض النقود. ولا يتوقف والداها الطيبان عن ترديد الدعوات بأن يحقّق لها الله ما تريد ويهبها ما تستحق إذ لم تكن إلا بارةً بهما مشفقة عليهما، تسعى لراحتهما ورضاهما. ولكنها هذه الأيام بدأت تهمل عملها وتنطوي في حجرتها بعد ما ألمَّ بها في الأيام القليلة الماضية. فقد استيقظت قبل الفجر كعادتها وهمّت بالقيام لتتوضأ لكنها سمعت صوتاً يناديها. أخافها الصوت الذي تجهل مصدره. جلست في سريرها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم إلى أن اختفى الصوت. هي متأكدة أنها سمعت من يناديها بعد أن استيقظت وليس أثناء النوم. لم تكن رؤيا ولا حلم. كان صوتاً حقيقياً استمر يناديها بعد أن جلست على طرف سريرها. قامت إلى كتاب الله تقرأ بعض آياته ثم صلّت ركعتي التهجد قبل آذان الفجر.

وفي نفس اليوم، قبل صلاة العصر عاد الصوت يناديها من جديد وكانت هذه المرة مستيقظة تماماً. خافت من النداء. ظنّته شيطاناً يريد إغواءها فأسرعت إلى سجادة الصلاة.

شغلها الصوت الذي يتردّد داخل غرفتها. يختفي حيناً ويعاودها

أحياناً. ظلّت على هذه الحال أكثر من أربعة أشهر. وعندما يناديها تسمعه خافتاً كأنه يأتي من بعيد. ثم يقترب شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح قريباً منها وكأنه معها. كأنه رجل في داخل الحجرة لكنها لا تراه. وتحاول أسماء كل مرة أن تكتشف مصدر الصوت. لم يقل لها شيئاً. فقط نادى اسمها ولم تجبه أبداً. تخاف أن تقول له نعم. تخاف أن يؤذيها فهي لا تدري بعد من هو وأين هو. وصارت تقضي أيامها وكأنها في فيلم رعبٍ لا ينتهي.

ألحّت عليها والدتها بالسؤال عن سبب تغيرها، إذ لم تعد تأكل كما ينبغي ولا تهتم بنظافتها الشخصية كما عهدتها وتتغيّب كثيراً عن عملها دون سبب. كاد قلب الأم أن يُنتزع عندما أخبرتها ابنتها بأن صوتاً يتردّد في حجرتها بين الحين والآخر.

نامت الأم تلك الليلة مع ابنتها. صلّت المغرب والعشاء في حجرة ابنتها وقرأت كل السور القصيرة التي تحفظها. الصوت لم يأتِ هذه الليلة، وهذا ما جعل أسماء تدرك أنه يحبُ الانفراد بها. لا يريد أن يسمعه أحد غيرها.

عادت أسماء إلى حياتها بشكل شبه طبيعي بعد أن صارت والدتها لا تنام إلا معها. وتحرص على أن تساعدها في استحمامها وتأنقها. كما وتحرص على دفعها بمودة بالغة للذهاب إلى عملها. وكلما تقهقر حال أسماء عادت أمها تساندها من جديد. ثم أخبرت زوجها بما تقوله ابنتها عن الصوت الذي يناديها. فذهب الأب من فوره وأحضر شيخاً يقرأ القرآن الكريم على أسماء.

7

مرّت الأيام لتزيد من اقتناع عبد الله بفتاته وليزداد يقين مها بأن عبد الله رجلها الذي طالما حلمت به. لكنه وبرغم كل هذا التقارب والثقة المتزايدة والشوق الظاهر في لهفته عليها وانتظاره لها، لم يقل بأنه يحبها. وظلّت حائرة تسائل نفسها عن نوع العلاقة التي تربطهما. لماذا لا يتحدّث عن الحب والزواج..؟ أيعقل أن يكون كما قالت فوزية "مجرد رجل يريد أن يتسلّى بقلب امرأة".

أرهقتها الظنون وملأت رأسها الوساوس. طلب منها أن يراها.. أن يتعرّف إلى شكلها.. أن يجلسا معاً وأن يتحدثا كما يتحدثان على الهاتف. هل يستدرجها كما تقول فوزية؟ "مستحيل".. بهذه القطعية جزمت مها. ثم عادت إليها وساوسها "فلماذا لا يريد أن نتحدّث عن مستقبلنا؟"

وضعت وجهها بين كفيها وبكت.. بكت لأنها أحبته.. أحبته ولم تعد قادرة على الابتعاد عنه. لكنه يهرب من الحب. وهذا ما يجعلها لا تجرؤ على إخباره ما لم يخبرها هو بأنه أحبها.

يلمّح عبد الله دائماً إلى رغبته في أن يرى مها فتخبره بأنها تتمنّى أن تراه هو أيضاً. وبرغم كل الكلمات التي وصف عبد الله بها نفسه وكل الكلمات التي وصفت مها بها نفسها بقيت صورة كل واحد منهما خيالاً في عقل صاحبه. وكم تمنّيا أن يتيقّنا من تلك الصور.

أخبرته ذات مرة بأنها ستذهب إلى السوق لتشتري بعض الثياب والعطور.

- ستكونين وحدك؟

- نعم..

- سآتي لأراك.

- أنا من ستراك. أما أنت فستراني كما رأيتني في المكتبة بذات الأغطية والعباءة.

- سأقف إلى جوارك.. سأمشي معك وأمسك بيدك.

- لا تكن مجنوناً.. لو انكشف أمرنا فسأموت رعباً.

- فديتُ روحك يا غالية.. سأكون هناك وسترينني ولن أرى سوى عباءتك الثقيلة.

بعد صلاة العصر وقف بسيارته في المواقف المكتظة بالسيارات ينتظرها من بعيد وعندما أقبلت سيارتها تهيّأ للنزول. نزلت مها ومشت متجهة إلى داخل السوق فمشى عبد الله خلفها دون أن يقترب منها ودخل من البوابة مع الداخلين.

كان يحمل كيساً في يده ليوهم من يلاحظ دورانه في الأسواق بأنه اشترى شيئاً. بحثت مها عنه بعينيها فلم تدري أين هو. دخلت المحلات، واحداً تلو آخر وكان لا يدخل خلفها بل ينتظرها من بعيد. وبينما هي في محل للعطور والمكياج، تجمع ما تريد ثم تفتح شنطة يدها لتدفع قيمة مشترياتها وقف شابٌ بقربها فجأة حتى كاد أن يلتصق بها وابتسم لها ثم سأل البائع عن سعر المشتريات فتيقّنت من أنه هو من صوته. أخرج محفظة نقوده دون أن يكلمها وناول البائع ثمن ما جمعته. أدرك البائع ما يحدث وابتسم لهما. أخذ عبد الله الكيس المملوء بالعطور وأقلام حمرة الشفاه ووضعه في يد مها.. ضغط على كفها، وأبقى يدها في يده للحظات ثم ابتعد بسرعة قبل أن

يلاحظه أحد. لاحقته بعينيها المخبأة خلف غطاء وجهها.. كادت تسقط على الأرض لفرط ذهولها.. شعرت بلمسته في تجاويف قلبها وليس على يدها فقط.. خرجت من المحل تبحث عنه.. لكنه قد اختفى.

جلس عبد الله في سيارته يستمع إلى فيروز ويراقب مخرج السوق ليرى مها عند عودتها إلى سيارتها التي يجلس فيها السائق منتظراً. وبعد أن رآها تعود وتركب السيارة. انطلق إلى البيت وجلس بجوار الهاتف.

اتصلت به فور عودتها وقالت بلهفة:

- كم أنت وسيم يا عبودي.. ما أجملك.

ابتسم للإطراء وتساءل مستحثاً إياها لتمتدح شكله من جديد.

- أعجبك شكلي..؟

- يا الله.. أكاد لا أصدق. أحقاً ذاك الشاب الوسيم هو أنت؟! أنت من وقف إلى جواري ولامس يدي؟! رموشك طويلة.. شواربك مرسومة بشكل بهي.. أسنانك بيضاء.. شفتاك وردية.. أكاد لا أصدق أني رأيتك.

أغمض عينية استحساناً وقال لها:

- كم يسعدني أن أكون مميزاً في عينيك.

- أرجو ألا يصيبك هذا بالغرور.

- لا يصاب بالغرور من يهرول خلف عباءتك في الأسواق يا غالية.

تنهّدت لعبارته وقالت في أعماقها "كم أحبك".. قالت له:

- عبودي أنت لا تدخن. أليس كذلك..

- نعم.. أنا لا أدخن. ولا أنوي ذلك..

- لكن.. لكن أنت تشرب. ألا تخاف على صحتك..؟

- وهل قال لك أحدهم بأني لا أفيق..؟ ربما أشرب كل عدة أشهر مرة ولا أصل للحد الذي ترينه في الأفلام العربية. لست مدمناً على شيء. فلا تقلقي..

- لكن.. ألا تخاف أن تدمن.

- لا طبعاً.. لا.. لكن لِمَ سألتِ عن التدخين.

ابتسمت وقالت:

- أظنك تعرف لِمَ طرحتُ سؤالي. لأن شفتيك وردية وأسنانك كاللؤلؤ. وهذا نادر بين الرجال..

- شكراً يا غالية. دعيني أخبرك سراً اكتشفتُه هذا اليوم. لكني أودّ أن أسألك أولاً هل تعرفين قول الشاعر:

والساق خرعبةٌ منعمةٌ ... عبلتْ فطوقُ الحجل منسدُ

والكعبُ أدرمُ لا يبيّن له ... حجمٌ وليس لرأسِهِ حدُ

ومشت على قدمين خصرتا ... والتفتا فتكامل القدُ

ما شَانَها طُولٌ ولا قِصَرٌ ... في خَلقِها فقوَامُها قَصْدُ

- نعم.. هذه الأبيات لدوقلة المنبجي. ما علاقتها بالسر؟

- السر هو أن دوقلةَ هذا سرق الأبيات مني.. أنا القائل الحقيقي لها. قلت أبياتي حين رأيت ساقك وقدميك اليوم.

ضحكت مها وتساءلت:

- كيف رأيتَ ساقي وأنا أرتدي عباءةً طويلة فوق تنورةٍ طويلة.

- من فضل الله عليّ أنك لم تلبسي البنطلون تحت العباءة وإلا لما رأيت ساقك عندما رفعتِ قدماً وتركتِ الأخرى على الأرض لتصعدي إلى السيارة. لقد ارتفعت ثيابك ورأيت جزءاً من ساقك.

صمتت وهي تحاول أن تتذكّر كل ما حدث فسألها:

- مها.. هل تشفقين عليّ؟

قالت باستغراب:

- ولِمَ؟!

- لأني أردّد الشعر عن ساقيك قبل ترديد ما يصف وجهك.

ثم قال بتوسل بالغ:

- أريد أن أرى وجهك يا مها.

- وأنا أريد أن ترى وجهي يا عبودي. أنا أكره هذا الاختراع الذي يسمّى عباءة.

- اختراع.. هل العباءة اختراع..؟!

- نعم.. اختراع مقيت.. أنا أشتم من اخترعها كل يوم.

قال مبتسماً:

- ومن اخترعها.

- العرب.. ولم يخترعوا شيئاً آخر..

ضحك وقال:

- عندما اخترع العرب قدّموا لنا هذه الورطة.

استمر الحديث بينهما طويلاً وظلّ عبد الله يحاول إقناعها بأن

تضع صورتها في كتاب وتحضره إلى المكتبة وهو سيتكفّل بالباقي لكنها رفضت بشدة. وبرغم كل رجائه ظلّت على ما هي عليه من خوف حيال وضع صورتها في أي مكان. فضياع صورةٍ واحدة كفيل بضياع سمعتها وصنع فضيحة لها ولعائلتها. أو هكذا أقنعوها منذ أن كانت طفلة. على أنها تثق بعبد الله جداً. ولكن لا تثق بالظروف والملابسات التي ستحدث داخل المكتبة. ماذا لو التقط الكتاب رجل غيره؟

انقضت أشهر عديدة دون أن يعرف شكلها. لكنه يعرف جيداً أن لا غنى له عنها. صارا يعودان من العمل وينامان بعد تناوُل طعام الغداء ولا يستيقظان إلا مساءً ليقضيا معاً على الهاتف ما بقي من ساعات الليل قبل أن تشرق الشمس ثم يقومان للذهاب إلى العمل. انقضت أغلب أيامهما بهذا الشكل لأن الحديث في الهاتف بعد الثانية عشرة ليلاً وكل من في البيت نيام يشعر مها بالطمأنينة.

بدأت مها تتألم في أعماقها لأن الحب يظهر في خوف عبد الله عليها وشوقه إلى محادثتها وصدقه معها.. يظهر في تدليله لها بأعذب الكلمات.. يظهر في ثقته بها وإطلاعها على كل أسراره وأخباره. لكنه لا يعترف أمامها بحبه. هي متأكدة من أنه يحبها. ومن أنه لا يعرف امرأة سواها. بل ولا يريد أن يعرف. فما الذي يجعله دائم الهروب من الاعتراف بما في قلبيهما.

عبد الله ليس متسرعاً في كل أمره. يحب أن يعطي كل شيء حقه، ويفضل دائماً التأني. ثم إن تجربته السابقة في الزواج جعلته يخشى الاندفاع أكثر من ذي قبل، ولذا قرّر بينه وبين نفسه أن لا يقول لها (أحبك) إلا عندما يراها وجهاً لوجه ويتأكّد من شعوره

التردد والخوف

تجاهها ساعة تكون معه برغم يقينه بأنه أحبها. أما هي فكم تمنّت أن تخبره بحبها له لكنها كلما اقتربت من الحديث عن نوع العلاقة التي تربطهما لاحظت قدرته على تغيير الموضوع والهروب منها قبل أن يسمعها تقول له (أحبك).

- عبودي.. أودّ أن أقرأ لك أبياتاً أحبها.

- هاتي أيتها العذبة.. على أنكِ أنت أعذب القصائد.

- من المفترض أن أسعد بكلماتك.. لكن..

- ألا يسرّك أن تكوني أعذب القصائد عندي؟

- يسرّني أن أكون أعذب النساء عندك.

تنهّد وقال لها:

- ليس في الأرض نساءٌ سواك يا مها.

حدثت نفسها: "يا إلهي.. ليس في الأرض نساءٌ سواي.. إلى هذا الحد يحبني؟!!.. فلماذا لا يعترف بالحب" ثم قالت له:

- أخاف من أن أكون عندك مجرد قصيدة عذبة.

- ثقي بقلبي يا غالية ففيه لك ما أعجز عن وصفه.

- حدّثني إذاً عما فيه..؟

حدّث نفسه قبل أن يجيبها: "لستِ في القلب يا مها.. إنك القلب ذاته".

ثم تنهّد وقال لها:

- سيخبرك قلبي شخصياً بما لك عنده حين نلتقي. لن أتولّى الحديث عنه. سأدعك تنصتين إلى ثرثرته نبضةً نبضة.. وخفقةً خفقة.. ستتحدثان أنتِ وقلبي ولن أتدخّل بينكما. هيا يا غالية.. توّجي هذا المساء بترنمك الجميل.

تنهّدت مها وبدأت تتغنّى بأبيات للدكتور غازي القصيبي:

حسـبي وحسـبُك حلـم فـي تنفسـه

مـا فـي العوالـم من طيبٍ ومن رغد

عشـنا علـى راحتـيه نشـوة ضحكت

لـنا.. ومـا ابتسـمت قـبلاً على أحدِ

مـا كـان يومـاً ولا يوميـن موعدنـا

بـل كـان عمـراً وعشـناه إلى الأبدِ

- آه.. يا غاليتي.. لو أنك معي لكافأتك على انتقاء هذه الأبيات بقبلة على جبينك. بماذا أكافئك وأنت بعيدة عني هكذا؟

- غنِّ لي. اجعل غناءك مكافأتي المؤقتة إلى أن يحصل جبيني على قبلاته.

فوجئت مها به يختار لها الأغنية التي أحبّتها كثيراً وحفظتها كلها. إنها أغنية (أنا عندي حنين) للسيدة فيروز.. أنصتت إليه وهو يردِّد:

أنـا عـندي حنيـن مـا بعـرف لميـن

ليلـية بيخطفنـي من بين السهرانين

بيصـير يمشـيني لبعـيد يودّينـي

تـا أعـرف لمين.. وما بعرف لمين

وحين وصل إلى المقطع الذي تقول فيه فيروز:

أنـا خوفـي يا حبي لا يكون بعدك حبي

ومتهيألـي نسيتك وأنت مخبى بقلبي

غنَى:

أنا خوفي يا حبي.. لا تكون مها حبي

ومتهيألي لقيتك.. ومها جوّا بقلبي...

أثّرت الأغنية فيها كثيراً.. صوت عبد الله عذب وأداؤه جميل والكلمات رقيقة واللحن رائع. والمعنى ضمن الكلمات يؤكّد لها بأن عبد الله يحبها حتى وإن لم يخبرها بذلك.. بل ها هو يخبرها غناءً. سألها:

– مها.. ما بك؟

– أنا أبكي..

– فديتُ دمعَك يا غاليتي. لِمَ البكاء.. هل أثّرت بك كلمات الأغنية إلى هذا الحد؟

ولم يسمع سوى نشيجاً متواصلاً، فتأثّر لبكائها وقد أدرك ما بها، قال مرتبكاً:

– إن لم أفصح بالكلمات عن مشاعري يا غالية فلأني أودّ أن لا أفسد اللحظة التي سأراك فيها وأخبرك وجهاً لوجه عمّا في قلبي. هل تتخيّلين تلك اللحظة التي نكون فيها معاً وما سأقوله لك؟

شعرت مها بأنها لم تعد تحتمل أكثر فقالت بانفعال بالغ وهي تبكي:

– عبد الله.. أحبك.. أحبك.

علا صوت بكائها قليلاً. أما هو فقد اجتاحته كلماتها كالطوفان. أغرقته.. أفقدته القدرة على الإصرار بأن لا يعترف بحبه إلا إذا رآها.. كاد يبكي هو أيضاً عندما قال:

- وأنا أحبك مها.. أحبك حبيبتي.

ارتجفت أطرافها حين سمعت كلماته.. أشعرتها كلمة "حبيبتي" بالدوار.. ها هي تسمعها منه لأول مرة. وظلّت تبكي متأثرة.

- لا تبكي مها أرجوك.. لا تبكي حبيبتي.. أريد أن يسعدك حبي لا أن يبكيك.

8

تحسّنت أسماء بعض الشيء بعد أن قرأ الشيخ ما تيسّر من القرآن الكريم في المنزل ثم ناوله أبوها مئتي ريالٍ وخرج. ولكن لم يدم تحسنها كثيراً فقد عاد الصوت الذي يناديها من جديد بعد أيام قليلة، وعادت أسماء تتبع الصوت وتحاول أن تعرف مصدره. ثم اكتشفت أنه ينساب من الأعلى.. يأتي من فوقها.. يتسرّب من سقف الحجرة ويهبط عليها. أجابت النداء بشجاعة وسألته ماذا يريد فطمأنها الصوت وأخبرها بأنه ملاك مرسل من الله جاء ليقول لها بأنها خيرُ نساءِ العالمين. هكذا قال.. ولم تتردّد أسماء في الإيمان بما قاله لها.

عادت إلى الانزواء في حجرتها والانطواء على ذاتها وتواصلت أيام تغيبها عن عملها مما حدا بمديرة المدرسة إلى الاتصال بها في المنزل لتقترح عليها أن تتقدّم بطلب إجازة استثنائية بدون راتب لكي لا يتم الاستغناء عن خدماتها وتفصل من عملها في حال تجاوزت الحد المسموح من أيام الغياب بدون عذر رسمي. وافقت أسماء دون أن تستشير أحداً وبقيت في البيت. لم يجد أبواها تفسيراً لما أصابها سوى أن تكون عين حاسدة آذتها بحسدها. أو كيد ساحرٍ استعان بشياطينه ليقضي على حياتها. أو مس جنيٍّ لا يخاف الله أضرّ بعقلها. لقد صارت تهمل نفسها بشكل رهيب.. باتت لا تستحم حتى إذا حاولت والدتها إرغامها على ذلك. كما وأخبرت والديها بما قاله لها الملاك في إحدى زياراته لها.

صار الحوار بينها وبين الصوت مألوفاً بالنسبة لها. لقد أخبرها

ذات مرة أن بيتها في الجنة يتوسط بيتي آسيا امرأة فرعون وبيت مريم ابنة عمران.. ويقابله بيت فاطمة الزهراء ابنة محمد بن عبد الله ﷺ. وبيوتهن تلك أحجارها من ذهب وفضة وأرضها وسقفها من الألماس.. وفي داخلها مالاً حصر له من الولدان المخلدين. روت لوالديها ما بشّرها به الملاك وسمعته بأذنيها فخرج والدها من حينه ولم يعد إلا ومعه رجل وقور ذو لحية طويلة يحرّك مسبحة في يده وسواكاً في فمه ويردّد بصوت جهوري"لا إله إلا الله" بعد كل خمس دقائق تقريباً.

جلس الشيخ إلى جوار أسماء بعد أن ألبستها والدتها عباءتها وغطّت شعرها بشيلتها السوداء. سألها:

– بماذا تحسّين؟ لكنه لم يسمع جواباً.. فأسماء تنظر إلى لاشيء. عيناها لا تتحرّكان وجسدها كأنه من خشب.. قال لها الشيخ:

– عندما تشعرين بما يشبه دبيب النمل في جسدك فأخبريني.

ظلّت صامتة. وضع الشيخ مسواكه في جيب ثوبه وقرّب فمه من أذنها اليمنى وبدأ يقرأ قراءة عشر دقائق. ثم انتقل إلى أذنها اليسرى وقرأ أيضاً، وبعد أن توقف طلب منها أن تتمدّد على جنبها الأيمن.. لكنها ظلّت على وضعها.. كالدمية التي لن تتحرك إلا إذا نقلها أحدهم من مكانها.

تعاون والدها مع الشيخ ومدّداها على جنبها الأيمن على الأرض المغطاة بالموكيت. وضع الشيخ أعشاباً مجففة ومطحونة في فم أسماء وأنفها ثم جلس القرفصاء ووضع ركبته على جنبها ليحكم إمساكه بها ووضع كفيه الغليظين على عنقها.. ثم بدأ يصرخ:

– أخرج وإلا أحرقتك.. أخرج يا كافر.

وانتقى آيات من سورٍ مختلفة يقرأها متتالية بصوت يشبه الصراخ.

شعرت أسماء بأنها تختنق. وأن أنفاسها تذوي بسبب ما امتلأ به فمها وأنفها من مواد غريبة وبسبب كفي الشيخ اللتين تطبقان على حنجرتها. حاولت تحريك جسدها لكنها لا تستطيع بعد أن سقطت ركبة الشيخ على الأرض أمام بطنها وركبته الأخرى على الأرض أيضاً وراء ظهرها وهي ممدّدة على جنبها ومحجوزة بين فخذيه.

ظلّ الشيخ يأمر العفريت الذي يعتقد بأنه دخل جسدها بأن يخرج من إصبع قدمها الصغير. وردّد الكثير من التهديدات والوعيد.. ثم عاد يسترضي الجني ويأمره بأن يسلم وأن يكون طيباً ويترك أسماء وشأنها. وسمع صوت أنين أسماء وحشرجتها. فعاد يهدّد الجني ويتوعّده، ولما لم يسمع إجابة تدلّ على الموافقة صفع أسماء بقوة على وجهها فانتفضت تحته وصرخت بصوت مكتوم تعيق خروجه أصابع الشيخ الغليظة التي تضغط على عنقها الطري. التفت الشيخ إلى والدها وسأله:

– هل حرّكت قدمها اليسرى؟ أخبره والدها بأنها حرّكت قدميها وتحاول طوال الوقت تحريك جسدها كله. فقام الشيخ من فوقها وقد أكّد لهم أن تحريكها لقدمها اليسرى دليل على خروج الجني.

بقيت أسماء ملقاة على الأرض لا تتحرّك. وفسّر الشيخ ذلك لوالدها بأن خروج الجني من جسدها أرهقها إلى حدٍّ رهيب. وقد يؤدّي ذلك الإرهاق إلى أن تبقى نائمة لساعات بعد خروجه. ترك قارورة ماءٍ قال إنه قرأ عليها آيات من القرآن الكريم. وأن على أسماء أن تشرب منها في الصباح وفي المساء لتحميها من عودة

الجني إلى جسدها.

تناول الشيخ خمس مئة ريال من والد أسماء وخرج. وعاد الرجل إلى ابنته يتعاون مع والدتها، يحملانها إلى سريرها.

لكن أسماء من سيئ إلى أسوأ.. وهذا ما جعل والديها يعتقدان بأن الجني لم يتركها وشأنها.. إلى أن زارتها بعض زميلاتها اللواتي يعملن معها في ذات المدرسة وأشفقن على حالتها.. كما وأشفقن على حال الأم التي تمسح دمعها وترحّب بهن. اقترحت إحدى المعلمات على أم أسماء بأن يأخذوا ابنتهم إلى المستشفى فربما يجد الطبيب لها علاجاً ينفعها أو يعطيها بعض المهدئات التي تساعدها على استعادة صحتها. على أن يستمروا في إحضار الشيوخ ليمنعوا الجن من الاقتراب منها.

رأت الأم أن اقتراحهن جدير بالاهتمام. ولم يتردّد الأب في قبوله فأسرع بأخذ ابنته إلى المستشفى. وحين رآها الطبيب أمر بتحويلها إلى مستشفى الصحة النفسية مباشرة. وهناك أمر الطبيب النفسي بتنويمها ليتم الإشراف على علاجها بشكل مباشر. وكتب في الملف الخاص بها (Paranoid Schizophrenia) أو (فصام بارانوي).

ابحث google

9

اتصلت مها كعادتها كل مساء وحدّثت عبد الله عن يومها في العمل وحدّثها عن كل التفاصيل هو أيضاً ثم قالت له:

– هل أخبركَ بما حدث اليوم في المدرسة.

– هاتي ما عندك.

– إحدى الطالبات بين الحين والآخر تسقط على الأرض فجأة في حالة صرع، وتهرول إحدى صديقاتها إلى إدارة المدرسة للاتصال بأهل الفتاة المصروعة لكي يحضر أحدهم فوراً ويأخذها إلى البيت أو المستشفى. أما المعلمات فيتجمّعن حول الفتاة التي تنتفض لشدة التشنج ويقرأن شيئاً من القرآن الكريم ثم يحملنها إلى السيارة حينما يحضر أخوها أو أبوها بعد أن يلبسنها عباءتها ويغطّين وجهها.

– ثم ماذا؟

– اليوم انفضح الأمر واتضح أن الفتاة متفقة مع صديقتها لتتصل من تليفون إدارة المدرسة بحبيبها وليس بأهلها.. لتخرج معه.

– تقصدين أن الطالبة لا تعاني من أي مرض ولكن ترتمي على الأرض وتمثّل دور المصابة بالصرع لكي تخرج مع الشاب الذي تحبه؟؟

– نعم. تخرج معه بعد أن تقرأ عليها بعض المعلمات شيئاً من القرآن الكريم اعتقاداً منهن بأن الجنّ قد دخل جسدها. ثم يتعاونّ على حملها إلى سيارته.

ضحك عبد الله كثيراً ثم قال:

– كيف توصلت إلى هذه الحيلة؟ لا شك في أنها ذكية جداً. وكيف انفضح أمرها؟

– صديقتها التي تتصل من هاتف المدرسة على الشاب أخبرت صديقةً أخرى بالسرّ الذي لم يكن يعرفه إلا هي. وانتقل السرّ من طالبة إلى أخرى ثم قفز السرّ عن طريق إحدى الطالبات إلى الإدارة. الإدارة تثبّتت من الأمر بالتحقيق مع الطالبة والاتصال بالأهل وسؤالهم عما إذا كانت تعاني من الصرع. ثم استدعت المديرة والدة الطالبة وأطلعتها على الأمر.

قال عبد الله ملمحاً إلى أمرٍ تعرفه مها جيداً:

– خطتها كانت ممتازة. والخلل كان في ثقتها بمن لا تستحق الثقة. لولا خيانة صديقتها لظلّت تنعم بلقاء حبيبها دون مشاكل.

أدركت مها أنه يلمّح إلى ضرورة التخطيط للقائهما فقالت له:

– نعم لكني أعتقد أن مستقبلها قد انتهى بعد أن انفضح أمرها أمام أهلها. الآن سيكون حسابها عسيراً.

– يا للمسكينة.. أنا مشفق عليها.

– ومَن منا ليست مسكينة. مَن منا ليست الآن كمن تُعذَّب في سقر؟

– لِمَ كل هذا التشاؤم حبيبتي؟

– لأني أرى واقعنا كما هو. ألا يأكل الناس في النار ويشربون ويتحدثون.. لكن يتعذّبون.. وهذا هو الحال الآن. نحن النساء نأكل ونشرب ونتحدّث ونتعذّب أيضاً. لا أرى واقعنا إلا كصورة مصغرة عن العذاب.. باختصار لسنا سعيدات أبداً.

- مها.. عمَّ تتحدثين بالضبط. وما علاقة ما تقولين بتلك التي انكشف أمرها؟

- عبودي هب.. لا قدَّر الله.. لا قدَّر الله أن أهلينا عرفوا عن حبنا وعن حديثنا معاً كل ليلة.. ماذا سيحدث لك؟ هل سيقتلك أبوك..؟ ربما لن يعاتبك حتى.. فأنت رجل.. أما أنا فالأمر مختلف.. ليس لأني اقترفتُ إثماً غير الذي تقترفه أنت.. وأنا لا أراه إثماً لكن هم سيرونه كذلك.. أنا وأنت نقوم بذات الفعل وهو الحديث معاً عبر الهاتف.. ولكن يرى المجتمع أني آثمة.. ولن نكون آثمين بذات القدر.. ولن نتلقّى ذات العقاب.. لماذا.. لأني امرأة.. هل تتفق معي عبودي؟

- نعم.. أعرف كل هذا عن مجتمعنا وأكثر.

- لمجرد أن تولد الطفلة أنثى فقد جاءت وأوزارها معها.. وزرها هو أنها لم تكن ذكراً. عبودي هذا ألمسه في كل شيء.. كل شيء.. تخيّل.. كنا مرة على سفرة الطعام ونقصت ملعقة. أبي أمرني أن أحضر واحدة لأخي. وعندما رفضت اعتبر أن هذا عصياناً لأوامره هو وغضب كثيراً.. دعني لا أقول انعكس الأمر ويقوم أخي لخدمتي.. لا.. لا أطمح إلى هذا.. وإن كنت أخته الكبرى وعليه احترامي.. لكن لنتجاوز هذه النقطة ولنقل لماذا لا يخدم نفسه..؟ لماذا أقوم أنا على خدمته.. لأنه ذكر. كل العلاقة في مجتمعنا قائمة على هذا الاستعباد والتسخير والإذلال والتعذيب. ماذا بقي لنا نحن النساء..؟ سمحوا لنا بالأكل والشرب.. حتى المساجين في السجون يأكلون ويشربون. بل حتى في نار جهنم يأكل المجرمون ويشربون حسب ما أخبرنا القرآن الكريم. هل هذه ميزة..؟ أن نأكل ونشرب!

بماذا تميّزنا نحن النساء عن من يقبعون في السجون لجرائم اقترفوها؟

استمع عبد الله إلى أنفاسها تتسارع أثناء حديثها ورأى أن معها بعض الحق إن غضبت في مثل ذلك الموقف إلا أنها قد بالغت كثيراً في تشبيهها.

– حبيبتي اهدئي.. أنت تتكلمين عن واقع لن يغيّره انفعالك.. لكن قد يغيّره صبرك ووعيك وتضافره مع وعي وصبر الأخريات.. اكتبي عن هذا وراسلي الصحف مثلاً. أستطيع أن أفعل شيئاً بهذا الخصوص. أعدّي مقالاتك وسأفعل ما أستطيع لنشرها في إحدى الجرائد.

كادت تبكي وهي تقول:

– عبودي الكتابة جريمة عند أبي وأعمامي وأخوالي.. عند الكل.

تنهّد وقال:

– لا بأس.. اكتبي باسم مستعار.

– إن لم ينكشف الأمر فأنا أتمنّى.

– لن ينكشف ما لم تخبري أحداً. اختاري اسماً يليق بك حبيبتي.

ثم قال ضاحكاً:

– والآن كفّي عن تغيير الموضوع لأني لن أغيّر ما سأتحدّث عنه الآن مهما انفعلتِ ومهما قلتِ.

– أي موضوع؟.. قل.

- يمزّقني الشوق يا مها إلى رؤياك.. أريد أن أرى وجهك ولو لدقيقة.

- لن أغيِّر الموضوع.. لكن.. أنا خائفة.

- حبيبتي.. ماذا إذا رتّبنا الأمر.

- كيف نرتّبه؟

ظلّت مها تناقش عبد الله في كل التفاصيل التي ذكرها ثم وافقت على خطته برغم خوفها الشديد.

قبل أن تنام في تلك الليلة التي وضعا فيها خطة اللقاء أحضرت كتاب أدعية وأذكار لا يزال جديداً من مكتبتها، ووضعته في ظرفٍ ترابي اللون ثم أغلقت الظرف جيداً وكتبت عليه بخط عريض:

إلى المكرّمة مديرة المدرسة يحفظها الله.

وضعت الظرف المغلق في حقيبتها التي ستأخذها في الصباح إلى المدرسة.

10

في فجر اليوم الثاني استيقظ عبد الله على صوت المطر.. كان مبتهجاً نشيطاً.. استحمّ وحلق ذقنه وتعطّر، ثم لبس ثيابه وتأنق كثيراً ووضع المزيد من العطر على غترته البيضاء وثوبه الأسود.. وكلما لمع البرق وأضاء حجرته تفاءل بيومٍ جميل.. فالمطر رحمة.. تخيّل رحمةً تظللهما.. والبرق ضياء.. تخيله ينير دربهما.. والرعد رسول من السماء تخيله يحرسهما.. وقبل أن يخرج نظر إلى المرآة ليطمئن إلى أناقته في هذا الصباح المختلف.. لمع البرق من جديد ثم زمجر رعد قوي فردّد عبد الله "سبحان من سبّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته لا يستكبرون".

خرج من بيته ولم يغلق الباب لكي يدفعه عند عودته دون الحاجة إلى استخدام المفتاح. ركب سيارته وانطلق إلى حيث اتفقا قبل السابعة صباحاً.

سبّحت مها حين سمعت الرعد أيضاً، ثم خرجت في الوقت المعتاد لخروجها كل صباح بعد أن اهتمّت بزينتها واطمأنت إلى اكتمال أناقتها.. لكنها لم تذهب إلى مدرستها بل ذهبت إلى مدرسة أخرى قريبة. لم يستغرب سائقها الأمر، فكثيراً ما تذهب لحضور دروسٍ نموذجية في المدارس الأخرى. وقبل أن تنزل أمرت سائقها بأن لا يعود ظهراً إلى هنا لأنها ستعود مع صديقة لها وعليه أن يذهب إلى مدرسة أختيها عبير وآية لإحضارهما وقت الانصراف. نزلت من سيارتها وعبرت الشارع المبتل بماء المطر والمزدحم

بالباصات وسيارات أولياء الأمور. مشت ببطء لتعطي سائقها وقتاً كافياً ليغادر قبل أن تصل إلى باب المدرسة. وقفت أمام الباب وناولت البواب الظرف الذي أعدته البارحة، طلبت منه إرساله إلى المديرة، وأخبرته أن لا وقت لديها لتدخل وتقدّم الظرف بنفسها فلديها عملها الذي لا تستطيع التأخر عنه. ثم شكرت البواب وعادت تعبر الشارع لتجد عبد الله واقفاً بسيارته خلف أحد الباصات الكبيرة في المكان الذي وصفه لها بالضبط. نظرت إلى السيارة.. وتأكّدت من أنه هو حين رأت الشريطة البيضاء التي أخبرها بأنه سيعلقها في منتصف الزجاج الأمامي على مرآة السيارة أمام عجلة القيادة. إذ ربما لن تميّز ملامحه جيداً بسبب غطاء وجهها.

فتحت مها الباب وقفزت إلى المقعد الذي بجواره وانطلق عبد الله بالسيارة يريد أن يطير بها قبل أن ينكشف أمرهما. ظلّ صامتاً للحظات إلى أن تجاوز منطقة الزحام في شارع المدرسة، ثم وضع كفه على كفها المرتجف. وقال لها مبتسماً:

- صباح الخير حبيبتي.

مضت دقائق قليلة ووصلا إلى بيته أخيراً. بسرعة دفع الباب، وقد تركه مفتوحاً ثم دخلا وأغلق الباب خلفهما، وإذا بهما في فناء بيته. أسندت ظهرها على سور الفيلا من الداخل وظلّت واقفة أمامه بغطاء وجهها الكثيف. لقد أصبحت مها معه لكنه لم يرها حتى الآن.

مدّ يده وأخذ يدها بهدوء ليدخلها إلى المنزل. مشت إلى جواره إلى أن وجدت نفسها في مجلسٍ أنيق. يمتلئ بنباتات الظل والتحف الثمينة. وفي ركنه البعيد مدفأة كهربائية.

جلست على الكنب ووضعت كفيها على صدرها تضغط على

قلبها الذي تزايد خفقانه، وعبد الله واقف بصمت أمامها. ثم ناداها، فرفعت رأسها ولم تجبه.

سألها:

- ألن أراك؟

أنزلت مها عباءتها عن رأسها ثم رفعت غطاء وجهها ووضعته إلى جانب العباءة على طرف الكنب. ظلّ عبد الله واقفاً.. صامتاً.. ينظر إلى كل تفاصيل وجهها وجسدها.. يريد أن يستوعبها.. أن يتشرّب ملامحها.. أما هي فقد ظلّت جالسة وكانت تداري ارتباكها بترتيب خصلات شعرها القصير بأصابع يديها.

نظر إلى عينيها.. إلى حاجبيها.. إلى الظلال الرمادية الهادئة على جفنيها.. إلى كحلها الأسود داخل عينيها.. إلى شعرها المرسل دون شرائط تجمع تموجاته الرائعة ولونه الجميل. أرخى عينيه ونظر إلى قدميها. رفعهما إلى تنورتها الرمادية الضيقة.. إلى خصرها النحيل.. إلى صدرها الناهد.. ثم عاد وثبّت نظره في عينيها. قال في ذهول:

- ما أجملك.. ما أرقك. أنتِ أجمل مما وصفتِ نفسك بكثير.

نظرت إلى عينيه وقالت:

- أخيراً أنا معك؟

جلس إلى جوارها.. التصق بها ثم ردّد مثل ما قالت:

- أخيراً أنتِ معي..

أمالت رأسها على كتفه.. استنشقت عطره.. أحاطها بذراعيه مترفقاً وهمس:

- مها.. أحبك.

ظلّ وجهها ملاصقاً لعنقه.. مختبئاً بين ثنايا غترته البيضاء.. وذقنها متكئاً على كتفه وهما على الكنب.. ردّدت بالقرب من أذنه:

- وأنا أحبك.. أحبك.

وكلما أبعدها قليلاً ليتأمّل وجهها عادت لتلتصق به فيبتهج لشعوره بإصرارها على البقاء في أحضانه ويطوّقها بذراعيه.

مرّت العشر دقائق الأولى دون الكثير من الكلمات، كان كل واحد منهما يريد أن يصدّق نفسه.. أن يتأكّد مما إذا كان لا يحلم. وأن يثبّت ملامح رفيقه في داخله.

رفع كفها برفق.. قبّله وتساءل وهو يبتسم:

- مها.. أهذه أنتِ..؟ أنتِ مها..؟.. أنتِ حبيبتي مها..؟

لا تزال الساعة السابعة والنصف صباحاً ومها جالسة بوداعة بين يدي عبد الله.. وعبد الله يحيطها بيده اليمنى.. أما اليسرى فتخلل شعرها وتلمس خدها بأطراف الأصابع.. وكلما أراد أن يتيقّن من وجودها بين يديه قبّل كفيها من جديد. رفعت مها رأسها الملقى على كتفه.. لامست شفتاها أسفل فكّه.. حرارة أنفاسها على عنقه وذقنه.. قرّب شفتيه بهدوء.. قبّل فمها، فشعر بها تنسحب.. تنهي القبلة قبل أن يرتوي.. أبعدت جسدها كله.. ثم وقفت ومشت أمامه إلى منتصف المجلس.. قام إليها ولمح ارتباكاً ودموعاً تكاد أن تسقط. أقلقه توترها.

- مها.. ما بك.. لماذا تودّين البكاء..؟

وكأن السؤال ساعد عينيها على إرسال الدموع فانهمرت تتسابق على خديها.

ندم عبد الله على تقبيلها.. وانزعج من موقفها منه.. استغرب

دموعها. كان يحسبها متلهفة بقدر تلهفه.. أو هكذا أخبرته على الهاتف. تذكّر الآن أنها قالت له مرة: "عندما نلتقي سألتهمك كلك، لن أبقي منك شيئاً" قال لها حينها: "يسرّني أن أكون لذيذاً كما تشتهين".

- هل تبكين لأني قبّلتك..؟ أنتِ حبيبتي يا مها.. هل تشكّين في هذا..؟

ظلّت صامتة تمسح دمعها. وبدأ يشعر بشيء من الندم والغضب.

- كنت أظن أنك مشتاقة إليَّ كشوقي إليك.

قالت وفي صوتها بقايا ارتباك:

- أنا مشتاقة إليك أكثر من شوقك إليَّ.

- وبماذا أفسّر دموعك؟ ما الذي حدث؟ لمَ البكاء؟ لِمَ قفزتِ مبتعدةً عني؟

- لا أدري..

- لا تدرين!! مها.. قولي بصدق ما بك.. كنت تلتصقين بي وعندما قبّلتك بكيتِ.. لماذا؟

قالت بعد تردد:

- لم أتوقّع أن تقبّل فمي؟ أقصد.. لقد تفاجأت.

- لا أفهمُك.. ترتمين على صدري وتبكين حين أقبلك؟ تطلبين مني على الهاتف أن أقول كل ما لديَّ لأنك سوف تشغلين فمي عن الكلام بشفتيك حين نلتقي ثم تبكين الآن... اشرحي لي ما بك؟

أرخت عينيها ونظرت إلى الأرض ثم مدّت يدها وأمسكت بكفه. ترك لها كفه وظلّ صامتاً.

قالت له برجاءٍ بالغ:

- لا تغضب مني.

هدأ صوته وهو يقول:

- لست غاضباً لكني أريد أن أفهم. ما الذي حدث؟ قلتِ لي فجر اليوم على الهاتف إن عندك سراً ستقولينه لي في فمي.. وكنا نتحدّث عن القُبل وتبدين اشتياقك. فما الذي تغيّر؟

اقتربت منه.. ارتمت على صدره وعانقته.. طوّقها بذراعيه ودام عناقهما دقيقة، ثم أبعدها عنه بسرعة.. دفعها بيديه بلطف ليجنّبها اكتشاف لظىً وتّرَ كل خلايا جسده عندما عانقته.. ظلّ ممسكاً بيدها.. ومشى بها إلى الكنب.

لم تلحظ تصرفه.. لم تعرف بأنه خاف ممن تبكي بسبب قبلة أن تقتل نفسها لو أدّى عناقهما واقفَين إلى اكتشافها لرغبات جسده.. تابعت كلامها معه:

- صدّقني لا أدري.. فقط شعرت بأني مرتبكة وأودّ البكاء.. وإلى الآن أشعر بخوف.

قال والاستغراب يملأ كلماته:

- تخافين مني!!.. مني أنا.. أنا يا مها..؟؟

- لا... لا.. أشعر بخوف من المغامرة ذاتها.. من كوني لست في المدرسة كعادتي.. ولست في بيت أهلي.. من كوني في نظر الناس كلهم أقترف جرماً لا يغتفر.

- مها.. هل هذه هي مغامرتك الأولى؟

- نعم.

- وقبلتُك الأولى؟

- نعم.

- شفتاك أيضاً عذراء يا حلوتي.

جلسا على الكنب.. سألته:

- وأنتَ يا عبودي.. ألست أعذر؟

ابتسم للتعبير الذي يسمعه لأول مرة..

- أعذر!!.. لا.. لست أعذراً.. لكن ها أنا أدفن تاريخي وأولد الآن بين يديك.. يحلو لي أن أكون طفلك يا حبيبتي.

سمعت جملته فترنمت بتنغيم فاجأه:

لهفـي.. أيوجـدُ مـن يعانى   حـرقةَ الأشـواق مثلـي؟

أنـا مـا عرفتُ الحبَ قبلَك   هـل عرفـتَ الحـبَ قبلي؟

هبنـي بظلِـكَ غفـوةً   فـأريك كـيف أمـدُ ظلـي

وأكـونُ طفلـتَك التـي   تـرعى الهوى وتكونُ طفلي

ردّد في حبور:

- الله.. الله.. الله.. ما أعذبك.. ما أعذبك.. لمن هذه الأبيات؟

- للدكتورة طلعت الرفاعي..

- سلمت يمين الدكتورة، وصحّ لسانك. كيف أكافئ لسانك على قول هذه الأبيات الرقيقة؟

ابتسمت مها ثم خبأت وجهها في صدره.. عانقها وضحكا معاً.

أبعدها عن صدره برفق وهدّدها مازحاً:

- لا تقولي ما يستحق مكافآتي السخية وإلا.. لا تلومي إلا فمك.

صمتَ قليلاً ثم سألها:

- أتودّين أن نتناول فطورنا؟

- نأكل!!

- نعم.. نأكل.. ألم يشعرك كل هذا البرد بالجوع؟

- لا أشعر بالبرد.. ولا بالجوع.

- يبدو أنني الشره الوحيد في هذا المجلس. تعالي إلى المطبخ لنحضر طعامنا.

قاما معاً ونظرت إليه وهو يخلع عقاله وغترته وطاقيته ويضعها بهدوء على طرف الكنب بجانب عباءتها ثم يخلل شعر رأسه بأصابع يديه. ظلّت تتأمّله فابتسم وأخذ يدها وسارا إلى المّطبخ. نظرت إلى كل أجزاء المنزل في الدور الأرضي.

- بيتك أنيق جداً.. هذه التحف ثمينة بالتأكيد.. والأثاث أيضاً.. هل هذا من اختيارك أم من اختيار والديك؟

- الطابق العلوي من اختيار والديّ.. أما هذا الدور فأنا من اخترت كل ما فيه.

- ومن يعتني بكل هذه النباتات الجميلة؟

- أنا.. إلا إن كنت مسافراً فتهتمّ أمي بها.

خرجت من المطبخ ودخلت غرفة نومه فتردّد في الدخول معها وفضّل الوقوف على الباب. قالت لنفسها "هنا ينام حبيبي.. هذا سريره.. وهذا دولاب ملابسه.. وأمام هذه المرآة يرتدي ثيابه ويسرّح شعره ويضع عطوره". مدّت يدها إلى قارورة عطرٍ نصف ممتلئة.. حملتها وخرجت إليه قائلةً:

- سآخذ هذه.

- فدتك وصاحبُها.

أعدّا القهوة العربية معاً والتمر وبعض سندويتشات الجبن بالمربى وجلسا على الأرض المغطاة بالموكيت في المجلس يتناولان الطعام ويستمعان إلى أشرطة محمد عبده وفيروز.

قالت فجأة:

- تذكّرتُ شيئاً...

وقفزت إلى شنطة يدها ثم أخرجت ظرفاً صغيراً وناولته إياه. وجلست بجواره على الأرض. فتح الظرف ووجد فيه مجموعة من صورها. أفرحته المفاجأة كثيراً.. وبدا الفرح على ملامحه وهو يقلب الصور.. تأمّلها كلها.. وعاد يتأمّلها من جديد.. ترك الصور على فخذيه وأمسك وجهها بين كفيه وقال لها:

- سأقبّل فمك حتى وإن بكيتِ.

لكن مها لم تبكِ بل اقتربت منه وقبّلته بسعادة.

أغمض عينيه كمن دخل في غيبوبة.. وبعد لحظاتٍ فتح عينيه ولم يفق. فقالت له:

- حبيبي.. أعطني صورتك.. صورة واحدة فقط.

قال في نفسه: "يا للمرأة.. هل هي من صخر" تنفّس بعمق ثم سألها:

- هل خلقك الله من المرمر؟

خمنت سبب سؤاله.. وذهب بها التفكير إلى معنىً لم يقصده:

- تقول هذا مع أن بشرتي قمحية..؟ أنتَ فيك شيءٌ من بياض ولست أنا.

- أنا لا أتحدّث عن لون بشرتك يا غاليتي.. أقول هذا لأنك لو كنتِ حتى من حديد لأذابتك القبلة كما أذابتني.

أدركت مها أن إلى جوارها رجل في داخله ألف بركان وأنه متماسك في ظاهره فقط. أما من الداخل فدماؤه تمور. صمتت.. لم تدر بماذا تجيب.. وصمتَ هو أيضاً.. رفع رأسه ونظر إلى السقف.. أخرج هواء الزفير ممزوجاً بآهةٍ خافتة.. ولم يبقَ إلا صوت فيروز:

فايق لما راحوا أهالينا مشوار

تركونا وراحوا وقالوا ولاد صغار

ودارت فينا الدار.. ونحنا ولاد صغار

والهوى جمّعنا.. وفرّقنا الهوى.

لا تدري مها ماذا تفعل.. تساءلت في أعماقها: "هل أعتذر؟ عن ماذا أعتذر؟ هل أسأتُ التصرف؟ وكيف هو التصرف السليم؟ هل ما أفعله طبيعياً؟.. أبكي من القبلةّ الأولى.. ولا أكترث للثانية.. لهذا تساءل إن كنت من حجر.. فقط اختار لفظاً مناسباً.. اختار المرمر لكي لا يشبهني بأي صخرة.. يا له من مهذب.. حتى وهو يغلي ينتقي ألفاظه.. يدرس تصرفاته.. لقد لاحظ التناقض بين ردتي فعلي.. ما بي؟ ألستُ الآن مع عبد الله الذي طالما اشتهيتُ قبلاته.. ولمساته. ألستُ مع الرجل الأجمل.. الأنبل.. الأغلى في هذا الكون كله؟ فما الذي أصابني؟

نظرت إليه وهو صامتٌ يجلس إلى جوارها على الأرض وقد أسند ظهره إلى الكنب.

11

أرسل بواب المدرسة الظرف الذي أعطته مها هذا الصباح إلى المديرة مع زوجته المستخدمة، وعندما فتحت المديرة الظرف لم تجد فيه إلا كتاباً متوسط الحجم للأدعية والأذكار. بحثت عن خطاب داخل الظرف أو داخل الكتاب فلم تجد شيئاً. اتصلت بالبواب وسألته عن أمر الظرف الذي أرسله إليها فأخبرها أن امرأةً جاءت هذا الصباح ويرجّح أنها أم إحدى الطالبات أو أختها وطلبت منه أن يقدّم الظرف للمديرة. توقّعت مديرة المدرسة بأن الكتاب هدية من امرأة ما وسوف تعرف فيما بعد من هي.

أما في مدرسة مها فالأمور تسير بشكل روتيني حيث تمّ توزيع جدولها في ذلك اليوم ضمن حصص الاحتياط على باقي المعلمات وسيرفع غيابها في نهاية الشهر ليتمّ الحسم من راتبها ما لم تحضر تقريراً طبياً أو تطلب احتساب الغياب اضطرارياً. لكن إحساساً عميقاً ظلّ يؤكد لفوزية بأن مها ارتكبت حماقة. ووعدت نفسها بأن تضغط على صديقتها لتعترف بما فعلته فتمنعها من ارتكاب الحماقات في المرات القادمة. تمنعها لأنها صديقتها التي تحب برغم اختلاف المرأتين عن بعضهما كل الاختلاف. إذ إن فوزية تزوّجت بشكل تقليدي ولم تكن لتؤمن أبداً أن في الرجال من يتعرّف على امرأة ويرضى بها زوجة له. ولم تتكوّن قناعتها العميقة هذه من فراغ فقد تعلّقت بشاب حديث التخرج عندما كانت مراهقة في المرحلة المتوسطة. ثم فوجئت به وقد خطب غيرها. بكت كثيراً على الهاتف

وظنّت أنه سيعتذر ويبكي هو أيضاً ثم يقول لها بأن والده أجبره على أن يتزوّج تلك الفتاة التي خطبها كتبرير لموقفه. لكنه لم يفعل بل قال لها حين سألته وهي تبكي عن سبب عدم زواجه بها:

– وهل أنا مجنون لأتزوّج من فتاة تحدّثت معي بالهاتف وعلى استعداد للالتقاء بي لولا أن الظروف تمنعها؟ من تحدّثت معي لا شك ستتحدّث مع غيري. ومن رضيت أن تلتقي بي فسترضى بأن تلتقي بأي رجل. كيف أستأمنها على عرضي وعلى تربية أولادي؟

صعقتها كلماته. أرادت أن تشرح له بأنها كلمته هو دون غيره لأنها تحبه هو فقط.. أرادت أن تقول له إنها ليست كما يظّن.. لم تتحدّث مع أحد. ليست خائنة.. ليست ساقطة.. إنها فقط عاشقة. لم تقل شيئاً. لقد خذلتها الكلمات.. كل الكلمات لا تستوعب ما في قلبها الجريح. ثم لماذا تشرح له؟ من ظنَّ فيها هذا الظن ولو لمرة واحدة لم يعد مؤتمناً على قلبها الصغير. لم يعد مستحقاً لكل هذه المشاعر الجميلة. لم يعد أهلاً للثقة والحب. لذا بصقت على الهاتف وأغلقت السماعة ولم ترفعها على رجل منذ ذلك الوقت. بكت بعده أياماً وأيام. تمنّت أن تتصل به.. اشتاقت إليه.. ثم كرهته.. وكرهت كل الرجال. وانصرفت إلى أعمال المنزل تساعد والدتها في كل شيء وتهتمّ بتربية أخوتها الصغار إلى أن تزوّجت وهي لا تزال في المرحلة الثانوية وأنجبت أولادها الثلاثة ثم تخرّجت. نسيت فوزية ذلك الشاب ولم تنسَ أن الرجال خونة كاذبون. صار موقفها من كل علاقة تسمع بها أو حتى تراها على التلفزيون موقف الرافضة.. المستهجنة.. المستقذرة. وترى دائماً أن من تغامر بالتعرف على رجل لا تضيع شرفها وسمعتها فقط، بل وتقترف إثماً ستحاسب عليه. لقد انضمّت

على غير وعيٍ منها بأسباب انضمامها إلى من يصنّفون أنفسهم حراساً للفضيلة ناقدين ومقومين لكل ما يرونه حولهم. وكم سمعت منها مها كلمة "انحطاط" كتعليق تردّده فوزية على كل موقف يحكي عن امرأة ورجل أحبا بعضهما أو حتى على قصيدة غزلية مهما كانت عذوبتها. تلك هي فوزية.. من يسمعها لا يدرك أسباب هذا الموقف الصارم ضد كل علاقة بين اثنين. لكن مها تعرف طيبة قلبها وصفاء نيتها ومحافظتها على الأسرار.

في بيت مها لم يحدث شيء غير اعتيادي إذ خرج والدها بعد الثامنة صباحاً وبدأت أمها تتابع الخادمة في تنظيف البيت وإعداد طعام الغداء.

12

انتهى الشريط.. وتوقفت فيروز عن الغناء في مجلس عبد الله، وبعد هذا الصمت الذي دام لدقائق قالت مها بحزنٍ بالغ:

– عبودي.. لقد تسبّبتُ في إغضابك.

– لا يا حبيبتي.. لم تفعلي.

وتابع:

– مها.. ماذا لو حدّثوك عن رجل يعشق امرأةً حدّ الجنون ثم التقى بها بعد شوق كاد يقتله.. ماذا تتوقّعين منه؟ بالتأكيد لن يمضيا الوقت في حوارٍ عن الحداثة أو نظرية دارون مثلاً.. أو حتى عن غلاء المهور.. هل تدركين قصدي يا غالية.. أنا لست غاضباً.. لكني ذلك الرجل الذي يهيم عشقاً وعليه أن يحسب تصرفاته.. عليه أن يقول أي شيء ويفعل أي شيء إلا ما يدل على ما في داخله.. عليه ألا يفقد سيطرته على نفسه.. عليه ألا يكون على سجيته في التعامل مع حبيبته. ألا يظهر كل ما يتمنّى البوح به.. أنا معك.. أجاهد نفسي لكي لا ألتهم شفتيك. أجاهد لأخفي عنك ما بي من نارٍ تتأجّج في داخلي. أجاهد لكي لا تكتشفي أن دمي يشتعل.

أدركت مها كل ما يقصده ولم تجد ما تقوله.. فتابع:

– أعلم أنك تحبينني كثيراً لكن أدهشني أن تكوني بين يديّ ولم تشعري بما أشعر.. ولم تدركي بأن كل خليةٍ في جسدي تستعر. لا أدري كيف لم أفكر فيما سيحدث وكل ما كنت أفكر فيه هو أن أراك وأن تصلي إليّ سالمة دون أن ينكشف الأمر. كان همّي أن أرى

وجهك.. أن أطبع صورتك داخل رأسي. أما كيف سنمضي الوقت معاً.. كيف سأتمكّن من مقاومة رغباتي فيكِ.. ماذا سنفعل؟ فلم تخطر كل هذه الأسئلة ببالي.. لم أتساءل كيف يُمضي عاشقان ست ساعات معاً. أخبرتك بأني التقيت بنساء كثيرات في الماضي.. لكن لم يكن بينهن مها.. لم يكن بينهن من تشبهك.. لم أكن عاشقاً متيماً.. ولا خائفاً من إغضاب امرأةٍ كما أخاف من إغضابك.. أو مضايقتك.. لم تسلب إحداهن لبّي كما سلبتِه ولم تشغل إحداهن قلبي كما شغلته. حبيبتي أردت أن تسير الأمور بيننا كما تودّين أنتِ.. تمنّيتُ أن تدفعي بنا نحن الاثنين إلى حيث ننسكب معاً في كأسٍ واحدة.. نذوب.. نمتزج.. لكنك.. لا أدري لماذا لستِ مثلي.. أقصد...

توقف عبد الله عن الحديث عندما وضعت مها وجهها بين كفيها من جديد. أمسك بكفيها وأبعدهما عن وجهها. لم تكن تبكي لكنها لم تبدُ مسرورةً بكلامه. حاولت أن تجمع أفكارها وأن ترد على تساؤلاته واستغرابه منها.. قالت بعتب:

- عبودي.. لن يحدث لك شيء لو انكشف الأمر لا قدر الله. أما أنا فسأموت.. سأموت حقيقةً لأن أبي سيطلق الرصاص على رأسي أو سينحرني بخنجره.. أو يذبحني كما تُذبح الشاة. هذا الصباح تخيّلت دمي ينبثق من نحري كالنافورة.. ومع هذا ركبت سيارتي وأتيت إليك. عبودي.. حبُك جعلني كمن حملت كفنها واجتازت خط النار لتذهب وترى حبيبها بين صفوف العدو. ماذا سيفعل بها أهلها إن عرفوا بما قامت به؟ أليس ما قامت به خيانة عظمى؟ ما أقوم به الآن خيانة عظمى في نظر أهلي. هم وكل المجتمع يرون أني ملك أبي وإخوتي الذكور حتى وإن كانوا أصغر مني. هم يرون أن عليّ

الانصياع لأوامرهم.. أن ألغي قلبي وعقلي وشخصيتي.. وأبقى حيث وضعوني إلى أن يسلّموني بأيديهم إلى الزوج المناسب من وجهة نظرهم. ما يدور برأسي الآن.. ما أفكر فيه.. هو خط النار الذي اقتحمتُه وتجاوزتُه في غفلة من أعين الرقباء. وها أنا معك.. خائفة.. لكن معك.. بكيتُ من قبلتك الأولى.. أو أنها قبلتي أنا الأولى.. لكني معك.. ربما بكيت لأني لا أصدق أني مع حبيبي وأنه يقبّلني.. بكيت ربما لأني أعلم أن حياتي كلها ستكونُ ثمناً لقبلة إذا عرف بها أبي. بكيت ربما لأني أعلم أني أقل شجاعة من أن ألتقي بك من جديد. بكيت من أشواقي التي ستسجنني فيك في أيام مقبلة ولن أراك. بكيت لأني أحبك جداً ولا أدري ماذا سأفعل بحياتي من دونك. بكيت لأني لا أريد أن أخرج من هنا.. أريد أن أبقى معك إلى الأبد.

اقترب منها عبد الله وأخذها بين ذراعيه.. أخبرها بأنه يدرك ما في أعماقِها.. أخبرها أيضاً بأنه لم يرَ بوضوح كما يرى قلبها الآن.

نظرت مها إلى ساعتها وكانت تشير إلى العاشرة صباحاً. شعرت أنها كمن يحمل ماءً في كفه ويأمل أن يكفيه مدى الحياة. لكن الوقت يتسرّب كما يتسرّب الماء من بين الأصابع مهما حرص حامله على الاحتفاظ به. رفعت رأسها ونظرت في عيني حبيبها.. سألته بحزن:

– حبيبي.. كيف سأراك مرة أخرى.

همس في أذنها:



– لا تحزني. المسألة بسيطة جداً.. تزوّجيني.



صرخت مها. قفزت مشاعرها فجأةً من قاع الحزن إلى قمة الفرح.. عانقته.. ضحكت.. صرخت من جديد.. سألته:

- متى..؟ متى..؟

- غداً.. لا.. لا.. اليوم بعد العصر سأتصل بوالدك وأحدّد معه موعداً.

ظلّت تعانقه وتنثر القبلات على خديه وفمه.. وتردّد دون توقف كلمة أحبك.

وبعد الكثير من القبلات والعناق طلبت منه أن يغنّي أغنية سعيدة.. فاختار لها أغنية (وحشتني) لسعاد محمد. تناول عوده.. نظرت إليه وأنصتت إلى صوته العذب وهو يردِّد:

وحشتني.. عدد نجوم السما..

وحشتني.. عدد كلام الهوى

وحشتني.. في كل يوم.. إنما

وحشتني.. أكتر.. وأكتر.. وإحنا سوى

تعالى نخلي الحلم حقيقة.. تعالى.. تعالى

تعالى نعوّض كل دقيقة.. تعالى.. تعالى

من خوفي لا بكرة يفرّقنا

وإحنا يا روح قلبي ما صدقنا

اشتقت إليك ورجعت إليك

وقلت لك وحشتني.

ليالي ليالي ليالي..

ما فارقتش ثانية خيالي.. ليالي

باستنى الفرحة وباستناك

وبغني وأنا بحلم بلقاك

الله على لقا الحبيب بعد الغياب

حلاوته بتخلي الهوى يرجع شباب

غنّت مها مع عبد الله وتمايلت طرباً ثم صفق كفّاها الناعمان كثيراً حين انتهى عبد الله ووضع عوده جانباً. وبعد الغناء عادا إلى موضوع زواجهما يناقشان التفاصيل كلها ويخطّطان لكل لحظة قادمة من حياتهما. أوشكت الساعة على أن تكون الثانية عشرة والنصف ظهراً وهما يثرثران عن كل شيء.

– عبودي.. ألا تحب الأطفال؟

– كثيراً.. أحبهم كثيراً كثيراً.

– كنتُ قلقة بهذا الشأن لأني أحب الأطفال.. وظننت أنك لا تحبهم.

– ولِمَ سوءُ الظنِ هذا؟

– لأنك الآن في الرابعة والثلاثين ولم تتزوّج.. قلت لنفسي لو أنك تحب الأطفال لكنت متزوجاً منذ سنوات.

– أنا أحبهم لدرجة أني أريد لهم أماً تشاطرني ذات الحب وذات الاهتمام. وترى معي ما أراه بشأن تربيتهم.

– أعِدكَ بألاّ تندم أبداً. سأكون هي تلك التي انتظرتَها وسأحرص على سعادتك. أما الأطفال فسأعتني بهم لأنهم أولادي أولاً.. ولأنهم أولاد حبيبي ثانياً ولأني أحب كل الأطفال ثالثاً.. ولأن الجهل بكيفية تربية الأطفال يؤدّي إلى تكوين شخصيات مهزوزة.. أو متمردة.. متطرفة.. أو مريضة نفسياً. الجهل يؤدّي إلى تدمير هذا المخلوق الذي نحبه.. الجهل بالتربية هو سبب امتلاء العالم بالأشرار.. بالمنحرفين.. بالمرضى النفسيين.

قال مبتسماً:

- وكم عبقرياً ستنجبين؟

- لا تسخر. طبعاً أولادي عباقرة لأنهم يشبهون والدهم. أنت كم تفضل؟

- طفلين.. اثنين وكفى.. أليس كذلك.

- أوافقك.

- تحبين البنات أكثر أم الأولاد؟

- لا فرق والله. كيف تظن أني سأفرّق بين أولادي؟

نظر عبد الله إلى ساعته ثم قال لها:

- دقيقة وأعود.

تركها جالسة وأسرع إلى غرفة نومه وعاد ومعه مغلف متوسط الحجم قدّمه إلى مها وطلب منها ألا تفتحه إلا في المنزل. لكن مها أصرّت على فتحه في لحظتها. وقبل أن يوافق كانت قد أزالت كل الورق الذي يغلّف علبة مخملية خمرية اللون. فتحتها وإذا بداخلها عقد صغير من الذهب مع إسوارة وقرطين وخاتم. كان الطقم على شكل ورودٍ صغيرة تزيّنها فصوص الألماس. وضعت مها يدها على فمها لتكتم صرخة كادت تخرج وفتحت عينيها على آخرهما وعبد الله يتأمّل تعابير وجهها بسعادة وينتظر تعليقها.

- عبودي أين وجدت هذا الطقم الرائع؟ ليس من أبها.. أعرف كل الأشكال الموجودة عند بائعي الذهب والمجوهرات هنا.

ظلّت لدقائق تنظر إلى كل تفاصيل الطقم ثم قالت بامتنان:

- عبودي.. ماذا أقول؟ هل عليَّ أن أقول شكراً؟ هل تشرح لك شكراً مدى امتناني.. مدى.. مدى ماذا.. ما هذا الذي أحسّه ولا

أستطيع التعبير عنه؟ عبودي.. ألا تساعدني.. ألستُ حبيبتك؟ قل لي ماذا عليَّ أن أقول؟

- قولي إنك تحبينني كثيراً وإنك لي إلى الأبد.

- أحبك أكثر من روحي.. ولن أكون إلا لك أنت.

عادت تقلّب العقد بين أصابعها وتلبس الخاتم في اليمين مرة وفي الشمال مرة ثم سألته:

- من أين اشتريته؟

- من هنا.. من أبها.. لكني طلبتهم أن يقدّموا لي شيئاً مميزاً وأعطيهم فرصة. انتظرت شهرين أو أكثر. أغدو وأروح لأرى ما لديهم من جديد ثم استقرّ رأيي على هذا الطقم.

حضنته وقبّلته فقال لها:

- ألستِ أنتِ عروسي الحلوة.. لكني لا أريد أن أراه عليك الآن لذا رجوتك ألا تفتحيه. سأراه يزيّن عنقك في اليوم الثاني لزواجنا، أما اليوم الأول فستلبسين الشبكة التي سأحضرها وقت الزواج.

- دائماً أنت تحب الأشياء في وقتها المخصص لها.

- كيف؟

- كنت ترفض أن تقول لي (أحبك) لأنك كنت تودّ قولها حين نلتقي والآن لا تريد مني أن أرتدي العقد لكي لا تراه على عنقي إلا في اليوم التالي لزواجنا. وأظن أني حينما أعاشرك سأكتشف أشياء من هذا النوع كثيرة.

- عندما تعاشرينني ستكتشفين كم أحبك وكم سأسعى لإسعادك.

- عبودي هل سنختلف.. وإن اختلفنا فعلى ماذا؟

- لكي أكون عاقلاً جداً أقول لك نعم سنختلف لكن خلافاتنا لن تكون متطرفة. لا أظن أن أياً منا سيكون في أقصى حدّته.

- ما الذي سيغضبك مني. أعطني مثالاً.

- لا أدري.. هبي أني خارج البيت، بالتأكيد لن آتي لأجدك نائمة وطفلتنا تبكي من الجوع مثلاً. لستِ متبلدة ولن تطعميها خوفاً من انتقاداتي. ستعتنين بها لأنك تحبين ذلك. أعلم أنك متزنة جداً لذا فأنا لا أدري على ماذا سنختلف.

- تتحدّث عن طفلة وليس عن طفل. اكتشفتك.. أنت تفضل بنتاً.

- أتمنّى أن تكون الأولى طفلة ثم طفل. لكن ما الذي سيغضبك مني. أعطيني أمثلة أنتِ أيضاً.

- أنا أغضب منك أنت؟ مستحيل.. ثم أنت لست متزمتاً وليست لديك نزعة العنصرية ضد النساء. لن تتحكّم في تصرفاتي. لن ترفض مثلاً ذهابي لأي صديقة لمجرد أنك الرجل وتريد أن تقول أنا هنا.

ضحك عبد الله ثم قال:

- لا يفعل هذا إلا من يشعر بالضآلة ويريد أن تكون له مساحات أكبر لذا يتسلّط على من يستطيع ممن حوله.

وبعد عناقٍ طويل قالت له:

- أريد صورتك حبيبي.

- خذي ما تشائين. خذي عشر صور أو مئة صورة.

- حبيبي.. أين أخبئها؟ أريد صورة واحدة فقط ليسهل عليّ إخفاؤها.

– خذي ما يعجبك. إن قرّرتِ أخذي أنا، فأُفضّل أن تخبئيني هنا.

وأشار إلى صدرها.

– أنت بالفعل هنا.

ووضعت يدها على قلبها فاحتضنها وقال:

– دعيني أودّعك إلى لقاء قريب. في المرة المقبلة ستدخلين هذا المنزل بثوبك الأبيض وباقة وردٍ في إحدى يديك وفي الأخرى أنا.

– تريد أن تقول بأنك ستمشي إلى جواري؟ لو تعلم كيف زُفّتْ إحدى جداتي إلى زوجها. فرش لها العريس عمامة رأسه على الأرض أمام منزل أهلها ومشت عليها لتركب الجمل وعندما وصلا إلى بيته فرش لها العمامة من جديد على عتبة الباب لتمشي فوقها وتدخل. أي أن قدميها لم تلامسا الأرض إلى أن دخلت منزلها الجديد. اختفت هذه العادات.. وجاءت عادات غريبة.

– سمعتُ عن هذه العادة عند بعض قبائلكم في عسير. ستتفوّقين على جدتك لأني سأفرش لك قلبي حينها.. هيا ارتدي عباءتك لكي أوصلك إلى منزلك.

أخذت إحدى صوره وخرجا من بيته في الواحدة تماماً. أي وقت انصراف الطالبات والمعلمات. وفي السيارة قال لها:

– مها لا تخبري فوزية عن لقائنا لكي لا تقدّم لك الكثير من النصائح.

– لا تقلق حبيبي. فوزية طيبة ولن تشي بنا أبداً.

– لم أقل بأنها ستشي بنا.. قلت ستستمر نصائحها.

اقتربا من البيت ولم يكن في الأمر مخاطرة فهي تغطّي وجهها ولن يعرفها أحد حتى وإن رأوها إلى جواره في السيارة. بشرط أن لا يراها أحد وهي تنزل من سيارته أمام بيت أهلها.

كان سائقها في الشارع يتأهّب للذهاب إلى مدرسة عبير وآية فاضطر عبد الله إلى عدم الوقوف أمام البيت وواصل سيره متجاوزاً بيت مها وكل البيوت المحاذية إلى أن خرج إلى الشارع المتقاطع مع شارع بيتها. حينها كان السائق قد انطلق بسيارة مها مبتعداً عن البيت فانعطف عبد الله ثانية وظلّ يقترب بهدوء إلى أن تأكّد من أن لا أحد من أهلها في الخارج ثم نزلت من سيارته وقفزت إلى بابٍ البيت وانطلق مبتعداً عنها بسرعة شديدة. دخلت وهي لا تصدّق نفسها. ألقت التحية على والدتها وصعدت إلى غرفتها وهي في حالة ذهولٍ مما فعلته. وقفت أمام مرآتها تتأمّل ذاتها.. رأت كم ازداد جمالها اليوم. تساءلت بسرور: "هل تضاعف السعادة جمال النساء..؟"

انتظرت بضع دقائق ليصل عبد الله إلى بيته ثم هبطت إلى صالة الجلوس واتصلت به لتطمئنه أن كل شيء على ما يرام. ولأن والدتها مشغولة في المطبخ فقد سمحت لنفسها بالثرثرة مع حبيبها في تلفون صالة الجلوس.

- هل أنت سعيدة يا حبيبتي؟

- سعيدة..! هل ما أنا فيه يسمّى سعادة.. لقد كنت أجلس على أرجوحة معلقة بقوس قُزَح.. كنت فوق الدنيا كلها.. كانت الأرجوحة تطير بي من شرق الدنيا إلى غربها.. وكان قوس قُزَح يتمايل مع تمايلي في الأرجوحة.. يا الله.

ضحك عبد الله وقال:

- من أجل هذا هطل المطر هذا الصباح.

- نعم.. من أجلنا.. ليصنع ألواناً لنا في السماء نجلس عليها.. نمرح فوقها.. نتدلّى منها ونتأرجح فوق الدنيا كلها.. آه.. أكاد لا أصدّق نفسي.. سأسمّي بيتك قوس قُزَح.

- بيتي..! إنه بيتك أنتِ أيضاً حبيبتي.. بيتنا. قوس قُزَحنا.

أنهت مها المكالمة بسرعة وعادت إلى حجرتها. أخرجت صورته من شنطتها وقارورة عطره وعلبة الألماس المخملية. تأمّلت أشياءها الجديدة ثم خبّأت العلبة في شنطة يد صغيرة لا تخرج بها كثيراً ووضعت القارورة أمام مرآتها على التسريحة. بعدَ ذلك تأمّلت حجرتها، أين يمكنها أن تخبئ صورته.. لا أحد يفتح دولاب ملابسها.. ستضعها في جيب الجاكيت الأسود داخل الدولاب بين ثيابها. لن يراها أحد. ولن تلبس الجاكيت لأنه أصغر من مقاسها بقليل. تستطيع مها كلما اشتاقت إلى حبيبها أن تُخرج الصورة وتقبّلها ثم تعيدها إلى مكانها.

عصر ذلك اليوم اتصل عبد الله بوالد مها في مؤسسته وبعد أن عرّفه بنفسه أخبره برغبته في التشرف بزيارته في منزله بعد صلاة العشاء. رحّب الأب بعبد الله وقال إنه سيكون في انتظاره..

في التاسعة تماماً كان عبد الله ووالده عبد الواحد وأخوه أحمد في مجلس الشيخ عبد الرحمن يخطبون ابنته مها. رحّب بهم وطلب منهم وقتاً للسؤال عن الشاب وعن العائلة. ثم يستشير ابنته وبعدها يصلهم جوابه. استبشر عبد الله خيراً وخرج في ذلك المساء من منزل مها وهو واثقٌ من أن قلبه لم يخرج معه.

مرّت الأيام.. وكلما كلّمها في الهاتف سألها بالذي خلقها أن

تبحث عن قلبه الذي فرّ منه واختبأ تحت الكتب أو إحدى الطاولات في مجلس أبيها.

كانا سعيدين ينتظران رد والدها بصبرٍ كاد يقضي عليهما. لكن والدها لا يحرك ساكناً. فكان عبد الله يصبّر نفسه بتقبيل صورها وتصبّر مها نفسها بتقبيل صورته. ويتساءلان عن سبب كل هذا التأخير.

ذات يوم دخلت أختها آية تطلب منها استعارة بعض ملابسها لتستقبل صديقاتها في البيت. أرعبتها آية وهي تفتّش بين الملابس عن ما يناسبها في المقاس والشكل. وقرّرت مها أن تخبئ صورة حبيبها في مكانٍ آخر قبل أن تقع في يد أحد.

ظلّت تتساءل بعد أن خرجت أختها أين تضع الصورة. وأخيراً اهتدت إلى مكانٍ لا يخطر على بال ملك الجان شخصياً. لقد لفّتها في ورقة صغيرة ثم حشرتها بين الجدار والإطار المعدني الذي يحيط بالنافذة. الصورة الآن أمامها ملتصقة بالجدار ولكن يغطّيها إطار نافذتها العريض الملاصق للحائط وكلما أرادت النظر إليها أدخلت سكيناً صغيرة بين الجدار والإطار المعدني وسحبت الصورة.

كلّمها عبد الله وأخبرته أين خبأت الصورة فقال لها:

- لم أكن مخطئاً حين قلت إني أثق بذكاء حبيبتي..

قالت له:

- آه ليتني أتعلّم السحر لكي أحولّك إلى صورة وأخبئك تحت وسادتي. وفي الليل أعيدك إلى شكلك الطبيعي وأسهر معك حتى الصباح.

- إذا كنت ساحرة فاسحري والدك ليوافق على زواجنا بسرعة.

هذا أفضل من أن تحوّليني إلى صورة..

في هذه الأثناء طرقت أريج الباب ودخلت على عمها. ابتسم لها وأشار بيده لكي تدخل. بدأت أريج تبحث عن أشرطة وأفلام فيديو جديدة لكنها رأت إحدى صور مها في برواز متوسط الحجم على إحدى الطاولات في زاوية المجلس.

- واو.. عمي من هذه الفتاة؟

- هل هي جميلة؟

- كثيراً.. من هي؟

- عروستي.. خذي.. كلّميها.

وعاد يقول على الهاتف: مها معك أريج ابنة أخي.. تودّ أن تتعرّف عليك.. ثقي بها فأنا أثق بها أيضاً.. إنها تربيتي.

تحدّثت الفتاتان بسرور مع بعضهما وخرج عبد الله إلى المطبخ يعدّ لنفسه كوباً من الشاي وعاد ليأخذ السماعة من ابنة أخيه التي لم تتردّد في إظهار سعادتها بالحديث مع حبيبة عمها.

- كم هي لطيفة يا عمي.. لقد تبادلنا أرقام الهواتف وسأتصل بها إن لم يشغلها عني حديثها معك.. متى تتزوّجان؟

- دعواتك يا أريج.

عادت أريج إلى أرفف المكتبة وعاد هو إلى هاتفه وقد وضع كأس الشاي على الطاولة أمامه: ماذا كنا نقول حبيبتي؟

- كنت أحدّثك عن ما قالته جان دارك.

- نعم.. ماذا قالت؟

- قالت جان دارك: ما من عذاب ينزله القدر بامرأة أفظع من أن يميتها عذراء.

ضحك عبد الله ثم قال مازحاً:

- ولِمَ لم تقولي هذه العبارة حين كنا معاً.. الآن تخبرينني؟

تجاهلت ما يقصد وتابعت: لكن أنا قلت شيئاً آخر.

- ماذا قالت حلوتي..؟

- أنا أقول: ما من عذاب ينزله القدر بامرأة أفظع من أن يميتها قبل أن تسمع كلمة ماما.

صمت قليلاً ثم سألها:

- مها.. لا زلتِ في الرابعة والعشرين. لِمَ القلق بهذا الشأن؟

- لا أكذب عليك.. تنتابني بعض المخاوف. أخاف من موقف أبي بشأن زواجنا.

13

قاومت أسماء العلاج وكرهت المستشفيات وأكّدت لوالديها بأن الطبيب هو الذي بحاجة إلى العلاج وليست هي إذ إن ما تسمعه من الملاك المرسل إليها حقيقة وليس وهماً وعلى الطبيب أن يصدقها وإلا فليأخذ هو الأدوية. لكن الطبيب أخضعها للتنويم في مستشفى الصحة النفسية لمدة أسبوعين كاملين إلى أن بدأت تتماثل للشفاء. كتب لها الطبيب موافقة بالخروج مع التأكيد على والديها ساعة إخراجها بضرورة أخذ الأدوية في مواعيدها المحدّدة وعدم إهمال الدواء أو تغييره أبداً إلا بعد استشارته.

فرح والداها وإخوتها برجوعها سالمة.. ولم ينتهِ أسبوعها الأول في البيت إلا وقد ذبح والدها خروفاً سميناً لإعداد وليمة كبيرة عزم فيها أعمامها وأخوالها وكل من له صله بهم. وجاء الأقارب كلهم مهنّئين بسلامة أسماء.

ألبستها والدتها أفخر ثيابها وأصلحت من شأنها لتبدو جميلة كما كانت. جلست أسماء وسط أقاربها تحكي ما جرى لها وما كانت تسمعه من أصوات. انزعج والدها من ثرثرتها وطلبت منها والدتها الصمت.

سأل أحد أعمامها والدها عما قالته أسماء، فقال الأب بإشفاق واضح:

- كانت تسمع أصواتاً تناديها وتدهورت حالتها كثيراً أما الآن فهي كما ترى بخير ولله الحمد.

ودار الحديث بين الأقرباء كل يقول رأيه الطبي في أمر صحتها. قال أحدهم:

- وهل يفهم الأطباء في هذه الأمور؟ ثم إن الأدوية ضررها أكثر من نفعها. انظر إلى ابنتك.. تكاد تقتلها الأدوية. هل هذه أسماء التي نعرف؟ غيّرتها الأدوية. أصبحت سمينة.. لقد تضاعفت.. صارت امرأتين بعد أن كانت واحدة. ثم ماذا لدى الطبيب؟ تحليل وأشعة. هذه الأشياء لا تظهر حقيقة الأمر الذي ألمَّ بها. كيف يُعالج الصوت الذي تسمعه يناديها بالإبر والحبوب.. الإبر والحبوب في جسدها هي. لكن الصوت يدوي في حجرتها.. يا أخي كيف تصدّقهم.. ألا ترحم ابنتك؟

قال والد أسماء متحسراً:

- وماذا أفعل؟ والله إني بذلت كل ما في وسعي ولم أترك باباً أعرفه إلا وطرقته والحمد لله ها هي بخير.

فأجابه ثانٍ:

- لا تعتمد على الطبيب. الطبيب يعرف من الزكام إلى الحصبة. لكن لا يعرف في أمور الجن والسحر شيء.

قال والدها:

- الحمد لله هي الآن أفضل من السابق بكثير.

قال ثالث:

- وكيف تضمن أن الذي أصابها لن يعاودها؟ يا أخي لا تستخسر المال في بنتك.. عالجها عند معالج يعرف الله ويقرأ كتب الأولين. أو أنك تريد أن تنتكس ابنتك من جديد.

- لا والله ما أريد لها إلا العافية.. بمن تنصحونني؟

- الذين يخافون الله كثير.. خلال اليومين القادمين أنا آتي وآخذكما أنت وهي معي بسيارتي عند الشيخ مسفر في القرية. وأبشر.. الشيخ مسفر إذا قرأ عليها لن يصيبها مكروه بعد قراءته بإذن الله.

شارف العام الدراسي على الانتهاء وأسماء في بيت والديها لم يتحسّن بها الحال للحد الذي تعود معه إلى العمل لكنها أفضل مما كانت بكثير. تستطيع أن تستجيب لوالدتها وترتّب بعض أركان المنزل. ووالدتها تحاول شغل وقتها بالأعمال المنزلية وفقاً لما أمر به الطبيب الذي أخبرهم بأن شغل وقتها بالإضافة إلى دعمها نفسياً يعدّ من العوامل المساعدة على استقرار حالتها.

ولشدّة حرص والديها وأعمامها على صحتها أخذوها إلى الشيخ مسفر الذي أمرهم بالتوقف عن إعطائها أدوية الطبيب لأن السحر لا يعالج بالحبوب والحقن. وبعد أن مرّت أسماء بتجربة أخرى تشبه تجربتها مع الشيخ السابق الذي ضربها وكاد يقتلها خنقاً. وبعد التزام والديها بما قاله الشيخ الجديد بدأت حالها تتدهور كما في السابق. ثم أصبحت أشد سوءاً.

14

وقفت مها في أعلى الدرج تتنصّت على والديها وهما يتحدثان في صالة الجلوس بعد أن سمعت والدها ينادي أمها ويقول إنه يريد إطلاعها على ما لديه. اكتشفت مها من خلال الحديث بينهما معرفة والدتها بتقدم عبد الله لها واكتشفت أيضاً أن والدها طلب من والدتها عدم الحديث عن موضوع الخطبة هذا إلى أن يتثبّت من نسبّ عائلة الخاطب.

سألته الأم:

- وماذا وجدت..؟

- ليسوا منا يا أم عادل ولسنا منهم.. مراد شوكت.. جده اسمه مراد شوكت.. من أين جاء شوكت هذا؟ لا أحد يدري. لا يعرف أحد ممن سألتهم عنه ما قبيلته. ما أصله.. لمن ينتسب.

- تقصد أنه ليس مناسباً؟

- ليس مناسباً أبداً. الرجل متعلم ووظيفته مرموقة وكل من يعرفه يثني عليه. ويعلم الله أني بذلت جهدي عسى أن أجد من يعرف أصله وفصله فأوافق عليه. لكن ما دمت لم أجد له قبيلة ينتسب إليها ويكون نسبه مكافئاً لنسبنا فلن أفضح نفسي بين ربعي. تعرفين ربعنا يا أم عادل.

- بالتأكيد لن نرضاه لابنتنا ما دام ليس بكفء لنا.

أرادت مها أن تنزل إلى والديها وأن تقول أمامهما "أبي أنا

موافقة على الزواج من عبد الله.. أنا أريده". لكنها تراجعت ودخلت حجرتها تبكي.

لم تكن بالشجاعة الكافية لتقف أمام والدها. ظلّت لدقيقتين أو أكثر في حجرتها ثم عادت تتنصت من جديد فاكتشفت أن أباها ذهب إلى مجلس الرجال ليستقبل بعض أصحابه. قرّرت ألا تسمح لخوفها من والدها أن يجعلها تخذل حبيبها. لن تضيّع حياتها من أجل لحظة مواجهة شعرت فيها بالجبن. ظلّت تشجّع نفسها إلى أن جلست إلى جوار والدتها أمام التلفزيون وهي لا تدري من أين تبدأ الكلام لكنها ستبدأ.

- أمي.. قولي لأبي إني أريد الزواج من عبد الله.. أنا موافقة.. وهذا حقي.

- هل جننت يا مها.. أبوك حسم الأمر وهو أدرى بمصلحتك. ثم كيف عرفت أن هناك من خطبك؟

- لا يهمّ الآن. عرفت وكفى. وأنا أريده. قولي لأبي هذا.

- لا أستطيع يا مها. أبوك لن يرضى بأن أشجّعك على الوقاحة.

صرخت مها:

- وقاحة..! أن أعلن موافقتي على الزواج من رجل أنا أريده تصبح وقاحة..!! إن لم تخبريه يا أمي فسأخبره أنا.

حوقلت الأم عدة مرات ثم قالت:

- كوني عاقلة ولا تجعلي والدك يقول لي بأني لم أحسن تربيتك.

صمتت مها وظلّت في مكانها تنتظر والدها. تمنّت لو أنها تستطيع الاتصال في هذا الوقت بحبيبها لكن هذا غير ممكن إذ لا يزال كل من في البيت مستيقظاً.

لم يغب والدها كثيراً. وحين عاد تحرّكت مها مبتعدةً بمجرد أن جلس إلى جوار والدتها. وقفت بالقرب من السلم في طرف الصالة وقالت وهي تمسك بخشب الدرابزين لعله يسندها ويخفي رعشة أصابعها.

- أبي أنا.. أنا موافقة على الزواج من عبد الله.

لم يستوعب أبوها كلماتها أو أنه لا يصدّق نفسه فأراد أن يتأكّد فقال لها بغضب:

- نعم.. أعيدي ما قلتِه.

أخذت نفساً عميقاً وقالت بارتباك تحاول إخفاؤه:

- أنا أريد أن أتزوّج عبد الله.

تميّز أبوها من الغيظِ وصرخ بها:

- ومن سألك رأيك يا قليلة التربية.

أخذت نفساً آخر وقد أدركت أنها في مواجهة يجب أن تنتصر فيها:

- الشرع يعطيني حق الرفض أو القبول ولن أتزوّج إلا عبد الله حتى لو ذبحتني.

قفز والدها إليها وصفعها بكل قوته على وجهها وهو يردّد:

- إذاً أنت تعرفينه يا فاجرة.. ماذا قلتِ؟.. الشرع.. تعرفين الشرع الآن يا قليلة الدين والتربية.

وتوالت الصفعات إلى أن تمكّنت مها من الصعود بسرعة على السلم والوصول إلى حجرتها باكية.

أغلقت الباب وبقيت على سريرها تبكي بحرقة.. فكّرت في الاتصال بحبيبها لكنها تعرف أن والدها الآن سيرفع السماعة كل حين. سمعت بعد دقائق والدتها ترجوه وتحاول تهدئته وهو يصرخ ويتوعّد ثم طرقت والدتها الباب المغلق بالمفتاح من الداخل. فتحته مها فاتّجهت والدتها إلى الهاتف ونزعت سلكه من الحائط وحملته وخرجت دون أن تقول شيئاً.

تساءلت مها عما ستفعله الآن. عليها أن تخبر عبد الله بكل ما حدث. كيف تصل إليه.. كيف تتحدّث معه؟

وأمست تبحث عن طريقة ثم نامت قبل طلوع الفجر بقليل على وسادة مبللة بالدموع.

استيقظت متأخرة عن موعد عملها لكن عليها أن تذهب ليس من أجل العمل هذه المرة بل من أجل عبد الله.

طلبت من سائقها ألا يغادر من أمام باب المدرسة ودخلت مدرستها في الثامنة صباحاً بعينين وارمتين من أثر البكاء. أخبرت زميلاتها بأنها مريضة ولم تأتِ إلا لأخذ خطاب تحويلٍ إلى الوحدة الصحية. وبعد أن وقّعت المديرة على خطابها وتمنّت لها الشفاء خرجت مها مع سائقها المنتظر عند الباب وبعد دقائق من السير باتجاه الوحدة الصحية للبنات توقفت عند أول كابينة هاتف في الشارع. اتصلت بعبد الله في عمله وأخبرته بكل ما حدث، وطلبت منه أن يأتي الآن أمام باب الوحدة الصحية. ثم اتّجهت مع سائقها إلى هناك. طلبت من السائق العودة إلى البيت وعدم الرجوع إليها ودخلت

إلى الطبيبة التي أعطتها بعض المسكنات وتقريراً يفيد بمراجعتها للوحدة في ذلك اليوم ثم خرجت لتجد عبد الله ينتظرها عند الباب.

اتّجها معاً إلى بيته. وهناك قبّل الوجه المتعب والعينين الذابلتين من كثرة البكاء وقلة النوم، ووعدها أن يتقدّم ثانيةً وثالثةً ورابعةً وعاشرة. أخبرها أنه لن يستسلم أبداً فشرحت له تفاصيل كثيرة عن معتقدات الناس في تكافؤ النسب وعادات القبائل وغباء المجتمع. بكت بين يديه فصار يهدّئها ويبكي.

قال لها:

- مها لن أتزوّج سواك. لا أريد إلا أنتِ.

قالت جازمة:

- وأنا قلت لك كثيراً إني لن أكون إلا لك.

- مها لماذا يفتخر أبوك بنسبه إلى هذا الحد؟ من هو جدكم؟ بماذا اشتهر.. ما تاريخه...؟

- ليس لدى أبي شيء آخر ليفتخر به. كل الذين مثله يفتخرون بأنسابهم ويتشبّثون بتقاليد القبيلة لأن هذا كل ما لديهم. أجدادهم الذين ماتوا لم يكونوا سوى رجالٍ بسطاء جداً وكل ما أنجزوه في حياتهم يتعلّق بقدرتهم على البقاء أحياء يقاومون الجوع في مواسم القحط. والمرض عند انتشار الأوبئة فقط. لم يكن لهم شأن أكبر من هذا.

ومسحت دموعها ثم تابعت متهكمة:

- أرجو ألا تظن أن من بين أجداد قبيلتنا من اخترع شيئاً أو ناضل من أجل حرية الإنسان أديسون ليس جدي ولا تشي غيفارا.

ثم ضحكت وقالت:

- ولا نلسون مانديلا بالطبع. تخيّل.. أبي يرى بأنه أفضل من مانديلا لأن مانديلا أسود. تخيّل.. العنصرية عينها وبكل فخر. أبي وكل رجال القبيلة ليس لديهم خيار ليشعروا بأنهم أهل للحياة غير التمسك بالنسب. لو أنهم يعرفون من الحياة غير هذا لتمسّكوا به وتركوا هذا الجهل الذي يقتلونني به الآن.

- نعم أعرف. لكن إلى هذا الحد..؟ يضربك دون شفقة.. يقرِّر مصيرك..؟ من أجل ماذا..؟ من أجل ظنّه الخاطئ بأن جده الأكبر تجري في عروقه دماء زرقاء.

قالت متهكمة:

- بالكاد كان في عروقهم دماء عادية. لو أنهم استطاعوا في ذلك الوقت عمل تحاليل لاكتشفوا فقر الدم الذي عانوه في أيام الجوع.

- مها.. الانتماء للقبيلة إلى هذا الحد يناوئ الانتماء للوطن. إن لم يكن يلغيه. المسألة في منتهى الخطورة.

- عمّ تتحدث حبيبي.. عن الوطن؟ كنا في المرحلة المتوسطة ندرس أن كلمة وطن ووطنية في حدّ ذاتها حرام.. وأنه لا يجوز الانتماء إلى الوطن لأن هذا يعني عدم الانتماء إلى الإسلام. هم علّمونا هذا ووضعوه ضمن مقرراتنا الدراسية وتحدّثني الآن عن الانتماء للوطن. عبودي أنا أتحدّث عن زواجنا.

قال متألماً:

- اهدئي حبيبتي. أنا فقط أتأمّل حجم مصيبتنا. نحن تائهون.. لا ندري لمن يجب أن يكون ولاؤنا. أبوك لم يقل لنفسه هذا رجل مسلم ليوافق عليّ.. ولم يقل حتى هذا رجل سعودي لقد بحث عن شيء آخر.. بحث عن القبيلة.

قالت باستياء بالغ:

– كل أب يرى أن ابنته جزء منه وليست كائناً مستقلاً عنه. ورؤيته استقاها من الثقافة التي تصوغ أفكارها وأحكامها لتشرّع حقوق الأب وتحفظها له. الرجال هم من يؤكدون على الحفاظ على هذه الثقافة. وهم من يغذّون التعصب بمباركة هذه الأفعال. إنهم يحافظون على سيادتهم بقهرنا.

– ماذا لو ذهبنا للقاضي وطلبنا منه تزويجنا؟ نخبره بأن والدك رفض تزويجنا.

– لست على ثقة بأحد. ربما أُجرُّ من شعري داخل المحكمة وأُردّ إلى أبي. سمعت قصصاً من هذا النوع ولا أدري عن مدى صحتها. أظنّ أن القاضي سيرفض تزويجي بحجة أنه لا زواج بلا ولي. ولن يكون هو الولي ما دام أبي لم يمنعني من الزواج بشكل عام ولكن منعني من الزواج بك تحديداً. لا تنسَ أن القاضي أيضاً نتاج لذات الثقافة وسيرى كما يرى أبي بأن لاحقّ لي في الاختيار إلا ضمن ما يقرّره سلفاً.

– مها.. سأسأل جيداً في هذا الأمر فإن وصلت إلى يقين بأن القاضي سيزوّجنا هل تأتين معي إلى المحكمة؟

– نعم آتي.. إن كنت سأخرج من المحكمة زوجتك سآتي معك.

– إذاً دعيني أستقصي الأمر وأرتّب له.

في هذه الأثناء عاد السائق إلى المنزل وكان والد مها في سيارته يتأهب للانطلاق إلى مؤسسته. كان من المفترض أن يعود السائق قبل هذا الوقت بكثير لكن ها هي تقترب من التاسعة صباحاً وللتو عاد بالسيارة.

سأله الشيخ عبد الرحمن بنبرة حازمة:

- أين كنت؟

أجاب السائق بلغته العربية المكسرة:

- أنا ذهبت مع مها إلى المستشفى..

أخذه والدها فوراً في سيارته وطلب منه أن يدلّه على المستشفى الذي زارته ابنته هذا الصباح. دلّه السائق على طريق الوحدة الصحية. وحين وصلا ظلّ الأب في سيارته أمام الباب لأكثر من ساعة. ثم بدأ يدرك أن مها ليست بالداخل. اتّجه إلى بواب الوحدة الصحية وطلب منه السؤال عن المراجعة مها عبد الرحمن. فرفع الرجل سماعة الهاتف واتصل بالداخل.. وجاء الجواب بعد دقائق بأن مها راجعت الوحدة الصحية وغادرتها منذ بداية الدوام.

بدأت الظنون تستهلك أعصاب الشيخ عبد الرحمن.. وبدأ يتساءل في أعماقه "أين ذهبت تلك الفاجرة". لم يكن قادراً على الذهاب إلى المؤسسة. اتّجه إلى البيت واتصل بمدرسة مها. ادّعى أنه ولي أمر إحدى الطالبات ويريد أن يتحدّث إلى معلمة الكيمياء مها، فأخبرته مديرة المدرسة أن المعلمة مها استأذنت اليوم لمرضها ويستطيع أن يقول ما لديه عن ابنته الطالبة إن شاء ذلك.

أقفل والدها الهاتف وظلّ واقفاً في صالة الجلوس لا يدري أين يبحث عنها. إنه على يقين الآن من أنها تلتقي بذلك الرجل الذي خطبها. لكن أين؟ وقرّر أن يذهب ويراه في عمله. يسأل عنه زملاءه. فإن وجده هناك فقد ظلم ابنته.

خاف من ردة فعله إن كان عبد الله غير موجود. سيدرك الناس سبب سؤاله من خلال ملامحه. سيجلب لنفسه فضحيةً إن هو ذهب.

بعضهم يعرف الشيخ عبد الرحمن لأنه جاءهم من قبل وسألهم عن أخلاق عبد الله.. الأفضل أن يستخدم الهاتف. اتصل بالعمل. وجاء الرد كالصاعقة. عبد الله استأذن وخرج منذ الصباح.

كأسدٍ جريح يئنّ في قفصه ويدور في حيّزٍ ضيق منذ أن أقفل السماعة في العاشرة صباحاً وإلى الواحدة ظهراً ظلّ الشيخ عبد الرحمن في صالة الجلوس يقف ويجلس. يضرب بقبضته الطاولة ويعود ويضرب بها صدره. تساءلت زوجته عما به إذ لم تره في هذه الحالة منذ أن عرفته، فصرخ بها أن تتركه وشأنه. ابتعدت المرأة لكيلا يزداد انفعاله عليها.

وبينما الحال كذلك في منزل الشيخ عبد الرحمن، كانت مها تخلل شعر حبيبها بأصابعها النحيلة وقد تراخى بجوارها وأسند رأسه على صدرها فاحتضنته بحنوٍ بالغ وهما على ذات الكنب الذي جلسا عليه في مرة سابقة.

ظلّ عبد الله على حالته تلك ملتصقاً بها. يخبّئ وجهه في صدرها ويستنشق عطرها إلى أن نظر إلى ساعته وكانت الواحدة تماماً فقبّل حبيبته كثيراً ثم ألبسها عباءتها وخرجا مسرعين. وحين وصلا كانت سيارة والدها واقفة أمام البيت وهذا يعني أنه في الداخل. قرأت مها آية الكرسي لتطمئن ثم تناولت يد عبد الله وأدخلتها تحت غطاء وجهها وقبلت كفه بسرعة ثم نزلت ودعاؤه يتبعها بأن يحفظها الله. قال لها:

– سأتصل بك غداً صباحاً في المدرسة لكي أطمئن.

هزّت رأسها وأقفلت باب السيارة وأسرعت إلى داخل البيت.

أرادت أن تعبر الصالة لكن والدها سألها وشرر يكاد يتطاير من عينيه:

– أين كنتِ؟

– في الوحدة الصحية. ألم تسأل السائق؟ هو أوصلني.

– حتى الآن؟ كنت في الوحدة الصحية إلى الواحدة ظهراً؟

حاولت مها أن تبدو هادئة:

– لا طبعاً.. لقد عدت إلى المدرسة.

ودون أن يسعفها الوقت للابتعاد هوى عقال والدها على كتفها بقوة أسقطتها أرضاً ثم توالت الضربات والركلات وهي مكوّمة تصرخ وتستنجد ووالدها يلعنها ويردّد بصوت مرتفع "يا فاجرة.. تضعين رأسي أنا في التراب.. يا ساقطة" والعقال يرتفع ويهوي عليها في كل أنحاء جسدها دون تمييز وهي تحاول أن تحمي وجهها بكفيها فيركلها والدها بحذائه إلى أن سال الدم من أنفها.

جمع صراخها واستنجادها أخويها وأختيها الذين عادوا للتو من مدارسهم وأمها المشغولة في المطبخ. تكوّم الإخوة في ركن الصالة يرتجفون وتدخلت الأم بينهما لكن الأب لم يتوقف عن ضربها إلا بعد أن تعب. جلس على الكنب يلتقط أنفاسه للحظات ثم حمل عقاله وغترته وقبل أن يتّجه إلى الباب بصق عليها وقال لأمها صارخاً:

– تبقى في غرفتها مسجونة لا تغادرها أبداً. هل هذا واضح؟

تعاونت الأم الحزينة وابنتاها الخائفتان على حملها والصعود بها إلى الأعلى ثم وضعنها على سريرها. وبلّلن فمها ببعض الماء بعد أن حاولن إدخاله إلى جوفها وفشلن. إذ لم تكن قادرة حتى على

الشرب. خرج الجميع من حجرتها وتركنها تردِّد بصوت خافت "يا عزرائيل خذني".

أدرك أحمد وعادل أن أختهما فعلت ما لا يُغتفر وإلا لما ضربها أبوهما بهذا العنف. لم يسألا أحداً وتركا لخيالهما الحق في أن يصوّرها بالشكل الذي يوصلهما إلى الرغبة في قتلها. وها هما يريان أن ما فعله والدهما قليل بالنسبة لما تستحقّه مها.

دار الأب بسيارته في الشوارع لا يدري إلى أين يتّجه. ثم عاد إلى بيته قبل صلاة العصر. قدّمت له زوجته طعام الغداء فأكلِ القليل جداً وسأل عن أولاده فأخبرته أنهم تناولوا طعامهم وهم الآن في غرفهم يؤدّون واجباتهم المدرسية.

– والقذرة. هل قدّمتِ لها الطعام..؟

– مها!.. رفضت. ماذا فعلت؟ لن تضربها إلا إذا استوجبت الضرب.

– الواجب قتلها وليس ضربها.. تبقى في غرفتها دون ماءٍ أو طعام إلى الغد.. مفهوم..؟ ولا تغادر حجرتها أبداً؟ غداً تقدّمين لها الطعام وليس اليوم.

أدركت الأم أن زوجها ضبط ابنته في أمر مخلِ، وإلا لما كان فعل بها ما فعل.

15

اتصل عبد الله من عمله بمدرسة مها وطلبها مدّعياً بأنه ولي أمر إحدى طالباتها. وبرغم استغراب مديرة المدرسة من أولياء الأمور الذين يطلبون مها ثم لا يقولون شيئاً بخصوص بناتهم قالت المديرة للمتصل بأن مها تغيّبت اليوم أيضاً.

ظلّ عبد الله في عمله حائراً يحاول أن يخمّن سبب غيابها. راجع أحداث الأمس. لم تنزل من سيارته إلا بعد أن تأكّد بأن لا أحد في الشارع ينتظرها وهذا يعطيه أملاً بأنها دخلت إلى المنزل دون أن يشك أحد في أمرها. قال لنفسه "ربما تشعر بتوعك أو ضيق بسبب رفض والدها زواجنا".

عاد من عمله وجلس إلى جوار الهاتف ينتظرها وهو يعلم أنها لا تستطيع الاتصال به بعد أن سحبوا الهاتف من حجرتها ومنعوها من استخدام هاتف الصالة.. لكنه لن يغادر إذ ربما تجد فرصة ولو لثوان.

قبل صلاة العصر بدقائق رنّ جرس الهاتف فالتقط عبد الله سماعته بسرعة آملاً أن يأتيه بصوت مها. لكنه وجد والدته تسأله عن سبب تأخره عن موعد الغداء فأخبرها بأنه لا يريد أن يأكل.. ولأنها ألحّت عليه طلب منها أن تأتي هي ووالده ليأكلوا كلهم في الدور الأرضي معه أما هو فلن يبتعد عن هاتفه أبداً.

وتوالت الأيام الثلاثة الأولى دون أن تصل إليه أي أخبار. في عمله ينتظر هاتفها. وفي بيته ينتظره أيضاً. ولا يذهب إلى أي مكان

آخر غير هذين المكانين مهما ألحّ الأصحاب ومهما عاتب الأصدقاء. اتصل بمدرسة مها في اليوم الثالث فأخبرته المديرة بأن مها غير موجودة ولم تزد على ذلك لأن شكاً بدأ يساورها حيال هؤلاء المتصلين.. ولم تدرِ أنهما حبيبها ووالدها.

في اليوم الرابع خرج من بيته مبكراً واتّجه إلى حيث تسكن مها. لم يقترب من البيت لكنه ظلّ يراقب سيارتها من بعيد. رأى السيارة تتحرّك وفيها أخواها عادل وأحمد والسائق قيّوم.. وكانت مها قد أخبرته بأن هذا هو اسمه.. عاد قيّوم بعد ربع ساعة ليقلّ عبير وآية إلى مدرستهما. ظلّ عبد الله واقفاً إلى أن عاد السائق منّ جديد ونزل من السيارة ودخل حجرته "لا أحد سيخرج من المنزل إذاً ولن تذهب إلى عملها اليوم أيضاً. أين أبحث عنها وكيف أبحث.. كيف أطمئنّ عليها..؟ فقط أريد أن أعرف أنها بخير". هكذا قال لنفسه ثم حرّك سيارته إلى عمله.. ومن هناك قرّر أن ينفّذ أمراً خطر في باله ولا يدري هل سيجد تجاوباً أم لا. لقد اتصل بمدرسة مها، لكنه لم يطلبها هذه المرة بل طلب المعلمة فوزية. كانت فوزية تؤدّي إحدى الحصص وكاد قلبها أن يقع عندما جاءتها المستخدمة تطلب منها الحضور للإدارة للرد على الهاتف. من سيتصل إلا إذا جرى لأولادها مكروه. ماذا حدث؟ وصلت أخيراً إلى الإدارة مهرولة والتقطت السماعة وإذا بصوت رجل يبادر بالاعتذار:

– أنا آسف جداً يا أستاذة فوزية على الاتصال بك لكن أردت أن أطمئن على مها. أرجوك طمئنيني.. أنا عبد الله.. قولي لي هل هي بخير؟ لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟

ارتبكت فوزية كثيراً إذ لم تتوقّع اتصاله أبداً. ثم ماذا لو عرف

زوجها يوماً ما أنها كلّمت رجل؟ ومن الرجل؟ رجل يسأل عن امرأة غريبة عنه. لو عرف زوج فوزية بأمر مها وعلاقتها بعبد الله لفرض على زوجته الابتعاد عن مها وعدم الاختلاط بها. لكن ها هي تجيب:

– أنا مثلك لا أعرف عنها شيئاً. نحن هنا ننتظر أن تتصل أو تحضر تقريراً طبياً عن الأيام الماضية كلها.

– اتصلي بالبيت أرجوك.. اتصلي الآن وسوف أتصل بك بعد عشر دقائق لآخذ الأخبار منك.. كلّميها أرجوك.. أرجوك.

– حاضر. سأتصل.

شعرت فوزية بشيء من التعاطف مع هذا الرجل الذي طالما حدّثتها مها عن طيبته ومحبته. شعرت بالبكاء في صوته الذي توسلها لتتصل.

– ألو.. السلام عليكم. أريد التحدث إلى مها لو سمحتِ.

– مَن يريدها؟

– أنا فوزية صديقتها من المدرسة. أنتِ والدتها؟

– نعم.. تعاني من وعكة صحية ولا تستطيع أن تردّ على أحد.

– ألف سلامة لها يا خالة. بلّغيها سلامي وسلام الزميلات كلهم. في أمان الله.

رنَّ الهاتف من جديد وأجابت فوزية لكن لم يكن لديها أي خبر يخفّف من عذاب عبد الله.. شكرها وأغلق الخط وترك رأسه بين كفيه بعد أن أسند مرفقيه على مكتبه وهو يشعر بأن قلبه يتمزّق.

16

يجلس الشيخ عبد الرحمن أمام التلفزيون يتابع الأخبار ولا يعي شيئاً مما يقرأه المذيع في نشرة التاسعة، إنه على يقين من أن ابنته كانت مع ذلك الشاب في اليوم الذي لم تكن فيه في المدرسة ولا في البيت ولا في الوحدة الصحية. وبدلاً من أن يكون مرور الأيام عاملاً من عوامل تهدئته، زاد غضبه وهو يفكّر في طفلته التي دلّلها صغيرة فأذلّته كبيرة. وإذا لم يسيطر عليها ويقيّد حركتها فستمرّغ جبينه المرفوع في الوحل. ستجلب له ولأهلها كلهم العار بعلاقاتها التي ظنّ أنها لن تعاودها بعد أن عاقبها أول مرة حين كانت مراهقة.. ماذا يفعل الآن؟ ردّد بينه وبين نفسه "﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ صدق الله وصدق الرسول. ها هي أول فرحتي.. كبرى بناتي وأبنائي.. قدوة أخواتها.. تتعرّف على شاب لتذلّني بين الناس.. تفضحني بين القبائل.. وتلتقي به.. تلتقي به وأنا حي.. لم أمت بعد.. موتها أقرب لها من ابن الزانية.. سأعيد تربيتك يا مها.. أقسم بالله إني سأعيد تربيتك".

انتبه من سرحانه على صوت زوجته تناديه من الأعلى بهلع، وحين تساءل عمّا بها أخبرته بأن مها سقطت من بين يديها على الأرض ومن الأفضل نقلها الآن إلى المستشفى. لم يمانع الأب بشرط أن تأخذها الأم بنفسها لا أن تذهب مع السائق وحدها.

انعكس الموقف على الأختين عبير وآية، فبرغم أن والدهما لا يراهما سوى طفلتين في المرحلة المتوسطة إلا أنه حرّم عليهما

استخدام الهاتف وصار لا يتلطّف أثناء حديثه معهما. صارتا تتجنّبان الجلوس في المكان الذي هو فيه لما في وجهه من عبوس ولما في قلبيهما من خوف بعد أن رأيا كيف ضرب أختهما الكبيرة.

الأم تنظر إلى مها وهي ملقاة على سريرها كالميتة لولا أنفاس تتردد في صدرها دون إرادة منها. وكانت تتمنّى أن يحضر والدها ليراها ويأخذها بنفسه إلى المستشفى لعله بهذا يصبح أقل حدّة لكنه لم يأبه لندائها.

قبل أيام كانت مها تأكل الطعام الذي تحضره لها والدتها وتجتهد لقراءة بعض الكتب لكنها الآن وقد مرّ أسبوع لم تغادر فيه غرفتها مطلقاً، تملّكها مزيج من مشاعر الحزن والوحدة، وشعور بالرفض من قبل الآخرين. سيطرت عليها أحزانها تلك للحد الذي جعلها تفقد اتزانها الجسدي والنفسي. حتى قدرتها على مضغ الطعام تدنّت. وحين دخلت عليها والدتها لتعطيها طعامها وجدتها ممددة تحت السرير. استغربت الأم كثيراً من ابنتها التي تركت سريرها وفضلت النوم تحته.

- لِمَ تنامين تحت السرير يا ابنتي؟

ساعدتها على الجلوس ورجتها بأن تُدخِل في جوفها بعض اللقيمات. استجابت مها وأكلت ثلاث أو أربع ملاعق وحين زادت على ذلك تحت إلحاح والدتها شعرت بمعدتها تعتصر وتحاول ردّ ما أجبروها على هضمه. اتّجهت إلى باب الحمام في زاوية من زوايا حجرتها تتقيأ وتبكي، ثم غسلت وجهها المتعب وارتمت على سريرها. صارت كقطعة قماش بالية كوّمها أحدهم وتركها، بعد أن كانت كراقصات الباليه تنساب حركتها بنعومة وهدوء وتمتلئ

بالحيوية والمرح. تغيّرت مها.. أذاب البكاء جفنيها وأنهك الشوقُ روحها. مزّقها الألم.. ولم تعد مها مها. صارت شيئاً آخر.. كل ما تستطيع فعله هو أن تضع شريطاً تلو آخر في مسجلها لتستمع إلى أغانٍ انتقاها لها عبد الله وتبكي.. دخلت والدتها لتعطيها طعامها كعادتها وكانت فيروز تردِّد:

يــا طــير يا طاير على أطراف الدني

لــو فــيك تحكــي للحبايــب شــو بني

روح اســألون علّــي ولــيفو مش معو

ومجــروح بجــروح الهوى شو بينفعو..

وحـــياة ريشـــاتك وأيامـــي ســـوا

وحــياة زهــر الشــوك وهبوب الهوى

كــنّك لا عــندن رايــح وجــنّ الهوى

خدنــي ولــنو شــي دقــيقة وردنــي

بكت مها ومنعها بكاؤها من أن تأكل فطلبت منها أمها أن تغسل وجهها لكنها سقطت على الأرض حين قامت لتغتسل فحملتها أمها وذهبت بها إلى المستشفى مع السائق. وبعد التحاليل وسماع شكوى الأم من أن ابنتها لا تذوق الزاد كتب لها الطبيب فاتحاً للشهية ومجموعة من الفيتامينات والمعادن.

في طريق العودة حدّقت مها فجأة في الطرقات، وكلّما مرّت سيارة بالقرب من سيارتها تأملتها جيداً لعلها ترى عبد الله ولو بالصدفة.

لكن عبد الله في شأن آخر لم تدر به. لقد أطلع مديره المباشر المهندس يوسف على كل ما لديه. وكان رجلاً تجاوز الخمسين ببضع سنين من أهل الحجاز. يعيش وحيداً لأن زوجته وأبناءه رفضوا الاستمرار في أبها وانتقلوا إلى جدة بعد سنة واحدة من قدومهم. يثق عبد الله في رجاحة عقل المهندس يوسف وعمق خبرته ويعلم أنه يحبّه وسيسعى لمعاونته.

أكد يوسف لعبد الله استعداده التام للذهاب معه إلى والد مها من جديد لطلب يدها مرةً أخرى.

اتصل عبد الله بوالد مها في مؤسسته وذكره بنفسه وطلب مقابلته من جديد لكن والد مها قال له بكثيرٍ من الاحتقار:

- لا لوم عليك ما دمت لا تعرف عادات القبائل لكن هاأنا أقول لك: ابحث لنفسك عن نسب تتشرف به قبل أن تطرق أبواب الناس أما ابنتي فلن تتزوجها أبداً حتى بعد أن أموت. لأن لها أعماما يستطيعون حمايتها من المتسلقين أمثالك. ليست بلا سند مثلك. إن لها قبيلة تجيد حمايتها.

وبعد أن أنهى كلماته أغلق الهاتف وجلس يطلق زفراتٍ متتالية ويتمنى لو أنه فجّر رأس عبد الله بمسدسه.

أدرك عبد الله كم أن والد مها جاهل ومتعجرف وشعر بأنه وسط دوامة بحجم الكون في قلب المحيط، الليل غلّف الدنيا بظلمته وهو يدور في أطراف الدوامة ويقترب من المركز لتبتلعه في جوفها السحيق ولا سبيل للخلاص. حاصره شعور بقلة الحيلة وعجز عن مواجهة الموقف. فَقَدَ حبيبتَهُ فجأة ولا سبيل إلى الوصول إليها.. فقدها ولديه شعور بأنها ليست بخير.

اتصل ذات مساء بتلفون منزلها وناول السماعة لأريج ابنة أخيه أحمد بعد أن لقّنها الكلمات التي سوف تقولها:

- ألو.. ممكن أكلّم مها.

جاءها صوت أحد إخوتها غاضباً:

- من يريدها؟

- أنا أريج.. قل لها صديقتك أريج.

- ليست هنا.. ولا تتصلي مرةً أخرى.

يعرف عبد الله أن صديقات مها ليس من بينهن من اسمها أريج فإذا أخبرها أحد أن صديقةً لها بهذا الاسم اتصلت فستكتشف أنه يحاول الوصول إليها.

لم يعد أمامه إلا الوقوف ساعات وساعات في الشارع المتقاطع مع شارع بيتها ينظر من بعيد إلى باب البيت لعله يراها تدخل أو تخرج فيتبعها ويعرف ماذا حل بها.

ولطول المكوث في مكانه اعتاد على رؤية السائق فخطرت في باله فكره التقرب منه لعل الأخبار عنده. راقب المنزل إلى أن رأى والد مها يحرك سيارته ويتجه إلى مؤسسته. اقترب من السائق المشغول بتمسيح السيارة وألقى عليه التحية ثم سأله إن كان يعرف بيتاً للإيجار في هذا الحي. نفى السائق معرفته بالبيوت فتصنع عبد الله الابتسام له وشكره وهم بالانصراف ثم عاد وسأله إن كان يعرف سائقاً يريد العمل عنده. وبعد ثوان من التفكير نفى السائق مرة أخرى. فطلب منه عبد الله أن يأخذ وقته وسيعود إليه بعد يوم أو اثنين يكون خلالها قد تذكر أحداً من أصحابه يود العمل سائقاً.. شكره مرة ثانية ثم سأله عن اسمه فقال بأن اسمه قيّوم. ردّد عبد الله

بابتسامة اجتهد في إظهارها كالطبيعية:

- شكراً لك يا قيوم.. أنت رجل طيب.. شكراً لك.

تمنّى عبد الله لو يطرق الباب ويدخل إلى حجرة مها.. ولكن لا سبيل إلى هذا. قرر أن يعقد صداقة مع السائق حتى لو تطلب الأمر رشوته ببعض المال فلن يتردد. المهم أن يكون لديه أخبار عن حبيبته. وصار يكثر من المرور وإلقاء التحية كلما تيقن بأن والد مها قد غادر إلى عمله.

اتصل المهندس يوسف بالشيخ عبد الرحمن وعرفه بنفسه وطلب موعداً وحين التقيا في المؤسسة كان عبد الله بصحبة المهندس يوسف فبادره الشيخ عبد الرحمن قبل أن يتكلّم:

- أهلاً بك يا مهندس يوسف أما مرافقك فقد أبلغناه الجواب وليس لدينا غيره ولولا أنك معه لطردته فوراً.

قال يوسف صادقاً:

- والله يا شيخ عبد الرحمن لو أنه خطب ابنتي لوافقت لكنه خطب عندكم ولن أزكيه لولا أني على ثقة من أنه رجل يستحق التزكية.

خجل الشيخ عبد الرحمن من أن يقول له لا بأس إن زوجته ابنتك فهو كفء لك في النسب. أما لي فليس بكفء. واكتفى بقول:

- الجواب وصلكم وليس عندي غيره

ظلّ المهندس يوسف يردد كلمات يحفظها عبد الرحمن منذ أن كان طفلاً كلها عمن يأتي خاطباً وقد عُرف بخلقه ودينه وعدم جواز رفضه لكي لا تكون فتنة في الأرض. وفي ختام حديثه أدرك بأن لوالد مها جمجمة من حجر ويصعب التعامل معها. خرجا يائسين.

وتساءل عبد الله بحزن: ماذا أفعل..؟

– انسها يا عبد الله. لا سبيل إليها.

نظر عبد الله من خلال زجاج سيارته إلى السماء الملبدة بالغيوم وقال:

– ولا سبيل إلى نسيانها.

وصل عبد الله إلى منزله وشعور بالانكسار يملؤه. عاتب القدر.. بكى.. شرب بعض الكؤوس وأمسك بالقلم وكلما كتب بيتين أو ثلاثة أفرغ كأساً في جوفه حتى انتهى من قصيدته الجديدة.

هـذي كؤوسي غدت منقوعةً بدمي...
وهــا هــم الفجــارُ يرتشــفون والبررة

قســماً بصــوتِك والألحــانِ ننشــدها
مــا في عروقي سواك.. ها أنت مستعرة

قسـماً بقلبــي وقلـبِك والدمــوعِ ومــا
يحــوي فـؤادُك مــن أسرارِك الخَطِرَة

مــا خنــتُ عهــدَك إذ بكيــتُ ولا
أسـقيتُ دمعــي سوى عصفورةِ الشجرة

لا تعجبــي إن أتــاكِ هدهــدٌ وروى
تــاريخَ أقــوامٍ لــم يدركــوا عِــبَرَه

تلـك الطـيورُ سـتروي بعضَ سيرتِنا
فهاتــي سـرك فــي صدر الذي غمره

وهاتـــي ثغـــرك يأمرنـــي أقـــبلَهُ

وهـاكِ عـبدك مسـروراً بمـن أمـره

لا تعجبـي حيـن يأتـيك المسـاءُ غداً

يشـكوا الذيـن أتـوهُ ليسـرقوا قمـره

لا تعجبـي إذ يـدي بيضـاء أخـرجُها

إنـي أحـاول كـيما تؤمـن السـحرة

يـا سـدرة المنـتهى ها قد رفعتُ يدي

ولسـتُ أخجـلُ.. كفـي لـم تكن قذرة

يـا سـدرة المنـتهى ها قد دنوتِ إليَّ

ولمّـا لمسـتُ نـداك لـم أقطف الثمرة

أيـن الصـراط إليك؟ وقد غدوتُ كمن

أضـاع جـنّاتِه كـي يتّقـي سـقره

لم يصل عبد الله إلى هذه الحالة منذ أن عرف نفسه.. لم يحزن كما هو حزين الآن.. ولم يبك كما بكى الآن.. ولم يشرب كما شرب الآن.

17

لاحظ الأقرباء والقريبات بأن مها لا تخرج إليهم عند زيارتهم لأهلها ولم تكن من قبل تفعل هذا. إذ بمجرد قدوم الأعمام أو الأخوال تستقبل الزائرين بوجه طلق وتسلم عليهم بمحبةٍ بالغة. ولأن الناس يقضون أوقات فراغهم في الزيارات العائلية وليس أمامهم إلا البيوت أو المنتزهات يتجمعون فيها ليثرثروا دون ملل من تكرارِ ذات الحكايات والأحداث القديمة، فهم يتزاورون باستمرار. ولهذا بدأت الأسئلة تتردد: أين مها؟ لمَ لا تسلم علينا مها؟ أهي مريضة؟ أم أنها تخرج من البيت وحدها دون أهلها؟ هل خرجتْ مها وأنتم هنا؟

ولأن السؤال الأخير سيجلب البلبلة داخل العائلة. ولأن بنات الأعمام والأخوال والجيران أكثرن من رسم علامات الاستفهام والتعجب فقد وقع الشيخ عبد الرحمن في مأزق. ولا يدري ماذا سيفعل.

قالت له والدتها:

- أختك وبناتها سيزرننا اليوم مساءً. أنت لا تريد أن تصل أخبار ابنتك إلى زوج أختك ومنه إلى أهله وباقي أرحامنا.

ظل الأب صامتاً يلعن مها في سرّه ويلعن اليوم الذي أنجب فيه بنتاً. قال لنفسه: "لا بد أن أزوجها. يجب أن أعثر لها على رجلٍ كفء".

تابعت زوجته:

– التلفون لم يتوقف. كل زميلاتها وصديقاتها يتصلن ويسألن عنها. بعضهن طلبت الحضور لزيارتها. ماذا أقول للناس؟ لا شك أنهم بدأوا بالثرثرة عن سمعتها وسمعتنا كلنا.

– لعنها الله الفاجرة. اسمعي.. سأسمح بأن تذهب إلى مدرستها بشرط أن أوصلها بنفسي وآخذها بنفسي. ويمكنها أن تسلم على الأقارب إن زارونا. وتبقى ما عدا ذلك في حجرتها. لا تأكل معنا ولا تجالسنا.

أسرعت أم مها إلى ابنتها تساعدها على ارتداء ثيابها لتستقبل عمتها وبنات عمتها بمظهر لائق. وطلبت من عبير وآية وضع بعض مساحيق الزينة على وجه أختهما المتعب. وفي المساء قالت لها إن والدها سمح بعودتها إلى عملها بشرط أن تركب سيارته هو ولن تذهب وحدها مع السائق أبداً. هذا الخبر أفرح مها كثيراً. جعلها تفكر من جديد في طريقةٍ للاتصال بحبيبها. جعلها تتنفّس بعمق وتشعر بشيء من التفاؤل.

جلست مها مع قريباتها في ذلك المساء وتظاهرت بالسعادة لقدومهم. وبعد أن غادرن تناولت بعض المسكنات ونامت. في الصباح شربت كوباً من الحليب الساخن مع الزنجبيل وارتدت ثيابها وعباءتها وخرجت لتجد أباها في انتظارها في سيارته. ولم يكن من عادته الخروج في هذا الوقت لولا اضطراره الآن.. فتحت مها باب السيارة الخلفي وجلست بصمت. لم تقل صباح الخير يا أبي ولا أي كلمةٍ أخرى.

وصلت مها إلى المدرسة قبل الطابور الصباحي ووجدت تعاطفاً وقلقاً عليها من الجميع. كلهن سلمن عليها وسألنها عن حالها. كان

منهجها متأخراً أسبوعاً كاملاً لكن لا بأس. ستعوض طالباتها فيما بعد، بدأت يومها كالمعتاد وشرحت في الحصتين الأولى والثانية أما الثالثة فكانت فراغ. وكذلك الخامسة والسابعة. أمسكت ورقة وقلماً وبدأت تكتب رسالة إلى حبيبها، وحين انتهت طوت أوراق رسالتها وأدخلتها في ظرف ترابي اللون من الأظرف الرسمية الخاصة بالمدرسة. أغلقت الظرف بعناية بالغة وكتبت عليه:

إلى الفاضلة أريج عبد الله حفظها الله ورعاها.

قبّلت الظرف لأنه سيلامس كفّي عبد الله ثم خبأته في دفتر تحضيرها واتجهت إلى الإدارة وبمجرد أن دخلت سألتها المديرة عن حالها فطمأنتها بكلمات مقتضبة وقالت بسرعة إنها ستحرص على إحضار تقرير طبي لتتجنب الحسم من مرتبها. ودون أن تعطي فرصةً للمديرة بمزيدٍ من الكلمات قالت لها:

– أتسمحين لي باستخدام الهاتف؟

– طبعاً يا أبلى مها.. تفضلي.

رفعت مها السماعة واتصلت بمكتب عبد الله. تواصل الرنين إلى أن انتهى ولم يجب أحد. اتصلت بمنزله ولكن لم يجب أحد أيضاً. فعاودت الاتصال بالعمل. كل هذا والمديرة جالسة على مكتبها تقرأ بعض الوارد الذي للتو وصل وتحاول استيعاب ما تنص عليه التعاميم الجديدة. فجأة أجاب عبد الله. كادت الكلمات التي في قلب مها أن تنفلت من فمها لكنها تنفست بعمق وقالت برزانة:

– ألو.. السلام عليكم.

عبد الله لا يصدق نفسه. قال بلهفة لاحظها كل من حوله:

– حبيبتي.. كيف أنتِ..؟ أين أنتِ بحق الله..؟

ضغطت مها السماعة على أذنها لكي لا يتسلل صوته إلى المديرة وقالت:

- لو سمحت أود أن أكلم أريج.

- أريج!!.. آه.. هناك أحد بجوارك. كيف أنتِ.. وأين كنتِ..؟

- طبعاً.. أنا في المدرسة.. لكن لأريج معي أغراض مهمة ويجب أن تصل إليها..

- تقصدين لي أنا؟

- نعم.. بالضبط..

- ماذا.. لا أفهمك حبيبتي.. فقط أريد أن أطمئن عليك.

- على أريج أن تأتي إليّ لتستلم أغراضها.. أرجوك أبلغها هذا..

- أين..؟ هل آتي إلى المدرسة..؟

- نعم.. بالضبط..

- متى..؟ الآن..؟

- نعم.. بالضبط..

- هل أقول شيئاً للبواب.. هل أطلب شيئاً منه..

- بالتأكيد.. أغراض أريج..

- حاضر.. خلال ربع ساعة سأكون أمام المدرسة لأقول للبواب إن لأريج أغراضاً عليّ استلامها..

- نعم.. بالضبط.. في أمان الله.

أغلقت مها السماعة وكانت متأكدة من أنها لم تقل كلمة واحدة تدل على أن هناك رجل سيأتي ليأخذ منها رسالة.. شكرت مها

المديرة وخرجت قبل أن تضيّع وقتها في مزيد من الأسئلة عن أسباب غيابها.. أما المديرة فلم تسمع شيئاً يريبها في مكالمة مها.. كل ما سمعته لم يتعد (نعم بالضبط.. أريج.. أغراض).

هرولت مها إلى غرفة المعلمات والتقطت دفتر تحضيرها واتجهت إلى الممر الذي يودي إلى بوابة المدرسة. وقفت خلف الباب الرئيسي ونادت البواب بصوت مرتفع إلى أن أجابها. مدت يدها بالظرف خارج باب المدرسة وقالت له من وراء الباب:

- لو سمحت يا عم ظافر هذا الظرف لزميلتي أريج وسوف ترسل سائقها الآن أو ربما ترسل زوجها.. لا أدري.. المهم أنها سترسل أحداً لاستلامه.. إذا جاءك السائق أو جاء زوجها ناوله الظرف.

العم ظافر بالكاد يقرأ لذا ظل صامتاً ولم يجبها بينما هو يحدق في الكلمات التي على الظرف ويتهجاها حرفاً حرفا، إلى أن استطاع التأكد من أنه مرسل لأريج وليس لسواها. ثم قال لها حاضر.

في هذه الأثناء كانت المعلمة فاطمة تجمع نوى التمر الذي أكلته المعلمات مع قهوة الصباح وتسكب عليه الماء في إناء صغير ثم أحضرت وعاء فارغ وإبريق يمتلئ بالماء ومرت على جميع من في المدرسة من معلمات وإداريات ومستخدمات وطالبتهن بغسل أيديهن ووجوههن مما ستسكبه عليهن من الماء الذي في الإبريق وتستقبله في الوعاء الذي ستضعه أمام كل واحدة منهن. كانت لا تسكب سوى قطرات قليلة على اليدين ومثلها للوجه. جميعهن استجبن لها ودعون للمريضة بالشفاء وتعوذن من أعين الحاسدات. ولمزيدٍ من الإخلاص كانت بعضهن تأخذ قليلاً من الماء في فمها وتتمضمض به ثم تعيده

إلى الوعاء الذي تمسك به فاطمة.

استمرت فاطمة في عملها هذا إلى أن فرغت من الجميع وصار الوعاء ممتلئاً بماء متسخ يميل إلى اللون البنّي. أعادته إلى الإبريق ثم حملته واتجهت به إلى مها وقالت لها:

– كلنا لاحظنا تعبك في الأيام الماضية. لاشك أنها عين إحداهن ولم تذكر الله ولم تصلِ على محمد صلى الله عليه وسلم. خذي هذا الماء يا مها واشربي منه القليل ثم اغتسلي به وسيكون فيه الشفاء بإذن الله. وهذا أيضاً غسول نوى التمر الذي أكلنه هذا الصباح. اشربيه وسيزيل عنك البأس إن شاء الله.

ابتسمت مها وشكرت زميلتها ووعدتها أن تفعل ما أوصتها به عندما تعود إلى البيت. فأكّدت لها زميلتها ضرورة أخذ الماء معها. وأن لا تنساه في المدرسة "هذا ما ينقصني.. شرب ماء قذر جمعنه في إبريق.. ألا يكفيني ما أنا فيه.. ما هذا الجنون الذي أضطر دوماً إلى مسايرته.. هل أنا بين مجانين.. أم أنهم العقلاء وأنا المجنونة..؟" هكذا حدثت نفسها فيما كانت فاطمة تضع الإبريق في كيس وتحكم إغلاقه ليسهل على مها حمله معها إلى البيت.

مضت دقائق قليلة ثم وصل عبد الله إلى المدرسة وبعد أن صافح البواب وتلطف معه حين ألقى عليه السلام سأله ما إذا كان هناك ظرف باسم أريج. وبعد أن أخذ الظرف وشكر البواب انطلق بسيارته إلى الشارع الخلفي للمدرسة ووقف هناك تحت شجرة وارفة. نظر إلى الظرف، إنه باسم أريج عبد الله وابنة أخيه هي أريج أحمد. قال لنفسه "تعمدت حبيبتي أن تكتب اسمي على الظرف" بدأ يقرأ الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ياويل قلبي ياامها

حبيبي عبودي.. لا أدري من أين أبدأ وماذا سأكتب.. بالتأكيد لن أجد ما يكفي من الكلمات لأشرح أشواقي إليك.. لذا فلن أكتب عن الشوق شيئاً.. يكفيني أن تعلم أنه ليس لي أهل سواك.. أنت أبي وأمي.. أنت روحي.. أنت فقط من أثق به.. أنت من أحبه.. أنا أحبك وأكره هذا الرجل الذي يسمى أبي وأكره أخوته الذين فرض القدر أن يكونوا أعمامي.. أكره أبناءهم كلهم..لأن أصغر طفل ذكر فيهم يحق له أن يوافق أو يرفض على من أتمنى الزواج به.. لمجرد أنهم ذكور كلهم يحق لهم تقرير مصيري.. وأبي لن يخالف لهم أمراً.. لأيجرؤ على تحدّيهم.. لن يفكر في مخالفتهم فيُنبذ من بينهم.. لعنهم الله كلهم.. ولعن نسبهم إلى سابع جد.

عبودي ليس لي إلا أنت.. أنت الدنيا كلها.. وقدري أن أكون ابنةً لرجلٍ أكرهه.. أكرهه يا عبدوي جداً.. لقد ضربني كما يضرب المتوحشون البهائم.. ركلني بقدميه حتى سال الدم من أنفي.. صفعني على خديّ.. امتلأ جلدي بالخطوط الحمراء الدامية من تأثير عقاله وامتلأ جسدي بالرضوض والكدمات.. كادت أضلعي أن تتهشم تحت قدميه.. بصق في وجهي وسجنني في حجرتي اثنا عشر يوماً.. تخيل.. التقيت بك يوم الأربعاء.. ومنذ أن عدت إلى المنزل استقبلني بالسؤال أين كنتِ.. ثم لم أدرِ إلا وأقذر الشتائم ترتطم بأذني مع ضرباته.. ومنذ تلك الساعة إلى صباح اليوم وأنا في حجرتي مسجونة.. السجن شيء رهيب.. كنت في حجرتي أتمنى أن أرى السماء.. أن أرى الناس.. أن أشم رائحة الأرض إذا نزل عليها المطر.. كنت أتألم كثيراً كثيراً.. سجنني لأنه عرف بأني أحبك..

وأظنه عرف أني التقيت بك في المرة الأخيرة.. لا أدري كيف لكنه عرف.. ولهذا ضربني بعنف وحبسني.. حرّم عليّ التجول داخل المنزل وحرّم على أختيّ زيارتي في غرفتي.. لم يكن معي سوى طيفك حبيبي.. أخبرتني أختي آية هذا الصباح ونحن نتناول فطورنا بعد أن غادر أخواي إلى مدرستهما أنها سمعت أمي تقول له بأن الناس صاروا يتكلمون عني ويتساءلون هل أنا مريضة بمرضٍ معد لذا لا يزورني أحد.. بل لا يعلمون في أي مستشفى أنا إن كنت مريضة.. أم أني هربت من المنزل مع أحدهم.. ولأن أبي خاف على سمعته هو.. وافق على أن أعود إلى عملي بشرط أن يوصلني هو ويعود بي هو.. ووافق على أن ألتقي بالأقارب إن زارونا.. تخيل.. لم يحزن لأجلي.. لم يشفق عليّ.. لم يفكر أني امرأة لها قلب وأن من حقي أن أتزوج من أرتضيه وأحبه.. لم يأبه إلا لكلام الناس.. الناس هم قضيته ولست أنا.. والله يا عبودي إني كدت أموت تحت قدميه عندما كان يرفس بطني وظهري ووجهي بحذائه السميك..

عبودي سأطمئن عليك دائما بالحديث معك من هاتف المدرسة كلما وجدت إلى ذلك فرصة.. عندي فراغ الحصة الثالثة يومي السبت والاثنين.. سأحاول كل سبت واثنين الاتصال بك ما بين التاسعة إلا ربع إلى التاسعة والنصف تقريباً.. انتظرني في هذا الوقت.. وحين اتصل بك قل أخبارك دون أن أسأل.. لأني ربما لن أتمكن من الحديث كما أود بسبب امتلاء الإدارة دائماً بالإداريات أو المفتشات أو غيرهن من الزائرات.. أما كيف سأروي لك أخباري فليس أمامي إلا الرسائل.. أكتبها لحبيبي ويأتي لاستلامها كلما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً..

عبودي حبيبي لا تقلق بشأني.. سأكون قوية ومتماسكة.. وسننتظر قليلاً لعل الأمور تتغير.. وبعدها نتباحث في أمرنا.. ونرى كيف سنلتقي دون أن يعرف المتوحش أبي.. كن بخير دائماً من أجلي.. حفظ الله حبيبي ورعاه.. قبلاتي..

الاثنين 16/11/ 1407هـ

الموافق 13/7/1987م

قبّل عبد الله ورق الرسالة وحرك سيارته ليعود إلى عمله بعد أن اختلطت المشاعر في أعماقه فمن جهة، شعر بشيء من الطمأنينة حين سمع صوتها وعرف بأنها ذهبت إلى عملها. ومن جهة ثانية تألم جداً مما ورد في رسالتها. تألم مما عانته في أيامها الاثني عشر الماضية. تألم من المشاعر السلبية التي تكونت داخلها تجاه والدها وتجاه الحياة كلها. تألم لأن غاليته الطيبة امتلأت غضباً وحقداً وصل بها إلى حد اللعن. فتاته الرقيقة تحولت إلى ذئبة أسيرة ستمزق بأنيابها ومخالبها من يؤذيها لو وجدت فرصة إلى ذلك..

عجز عبد الله عن التفكير. ماذا يفعل وكيف يتصرف لينفذ وعوده. ألم يعدها بأن تكون له ويكون لها. لم يعد يأبه لقلبه.. لأشواقه.. لأحلامه في أن يكون زوجاً لها وأباً لطفلين ولا أروع كما وعدته.. كل ما يريده الآن هو أن يحميها.. أن يزيل عنها الضيق والكدر.. أن تكون قوية كما قالت في نهاية رسالتها.. هل يختفي من حياتها.. يتركها وشأنها.. يطلب نقل عمله إلى أي منطقة أخرى ويهرب.. لتنساه.. ستتألم ثم تنساه مع الوقت وتتزوج رجلاً يرضى أبوها بنسبه.. هل يقوى على ذلك.. لو أنه يثق بأنها ستنساه لاختفى.. إذا كان بعده سيقتله ويحييها فسيبتعد.. لكن من يضمن هذا.. ماذا إذا

دمرها بخذلانه إياها..؟ ماذا إذا قتلها هروبه.. إنه يعلم أن العالم سينهار عند حبيبته لو خذلها.. ستفقد الثقة في كل شيء.. في كل الناس.. لن يلتئم جرحها إلا بعد سنوات.. هذا إن التأم.. إذاً.. ليس الحل في هروبه... "فأين الحل يا ربي" هكذا قال لنفسه.. ثم تساءل "هل تكفي سبعة أشهر من المكالمات الهاتفية ولقاءان لا يتجاوزان الإحدى عشرة ساعة في المرتين اللتين التقينا فيها.. هل تكفي ليصبح الحب بهذه القوة.. أن يتجذّر فيَّ وفيها فيقتلها بعدي عنها ويقتلني بعدها..؟ وهل كان الحب يوماً بعدد ساعات المكالمات أو اللقاءات..!؟ ما أكثر الذين نتحدث إليهم.. وربما نلتقي بهم ونجلس معهم أكثر مما نتخيل.. ولا نشتاق إليهم إن ابتعدوا.. بل لا نكاد نتذكرهم".

توقف لأن إشارة المرور حمراء أمامه. وأرخى رأسه على مقود سيارته لدقيقة ثم بكى وهو لا يزال في الشارع.

18

ذهب والد أسماء بابنته إلى شيخ آخر اسمه الشيخ مشبب.. اشتهر بصوته العذب عند قراءة القرآن الكريم.. وبقدرته على طرد الجان وفك السحر والعلاج من الحسد. في قرية لا تبعد كثيراً عن أبها وهناك رآها الشيخ وأخبره أن حالتها فريدة لأن في جسدها عاشقان يختصمان عليها وكلاهما من علية قوم الجن أحدهما ابن ملك إحدى قبائل الجن الكبيرة والآخر ابن عم له. وكلاهما يريدان الاستئثار بها. أمر الشيخ مشبب بغسلها بالسدر باستمرار والامتناع عن استخدام الشامبو والمنظفات الحديثة لأنها تزيد الجن طمعاً فيها وتعينهم على اختراق جسدها أما شجر السدر فهو طارد لهم.

هكذا قال ولم يثبت أحد عكس أقواله تلك وليس عليه هو إثبات صحتها عند هؤلاء البسطاء. كما أمرهم بعزلها في حجرة خاصة.. لا يدخلها أحد ولا ترى أحد. وتستمر عزلتها (سبعٌ في سبع) هكذا قال الشيخ فسأله والدها عن معنى ذلك وأخبره بأن تعزل أربع عشرة ليلة. ويسمح لوالدتها أن تحضر لها الطعام فقط. ويكون طعامها من لبن الماعز التي لم تضع إلا بطناً واحدة ومن التمر والخبز والعسل ولا يسمح بالأشياء المطبوخة أو التي مستها نار فالجن يستمتع بالطعام الذي يدخل جوفها وقد مسته النار لأنه مخلوق من النار إنه كما الإنسي الذي يستمتع بوجود الأشجار حوله وهي مغروسة في التراب لأنه من تراب وكلما ازداد اخضرار الأرض ازداد سرور الإنسان. هكذا شرح الشيخ مشبب الحالة. واقتنع والد أسماء بكل ما قاله له.

لم يضربها الشيخ ولم يبرك على جسدها كما فعل غيره. لم يمسك بحنجرتها. فقط قرأ عليها وأعطى والدها تلك التعليمات وأعطاه كيساً صغيراً فيه مسحوق تم عجنه بزيت. وللمعجون رائحة غريبة. طلب الشيخ منه أن يضع على طعامها قدر ملعقة صغيرة من هذه الخلطة. وأن يضع قدر ملعقةٍ أيضاً تحت وسادتها.

في طريق العودة كانت نوافذ السيارة مفتوحة فدخل الهواء البارد رئتي أسماء من خلف أقنعه وجهها الكثيفة. فتحت عينيها ونظرت إلى المزارع الخضراء والسنابل التي تتمايل في المدرجات. قالت لوالدها:

– أبي...

فرح بالنداء الذي لم يسمعه منها منذ أسابيع.. ردّد:

– نعم يا ابنتي.. نعم..

ظلت صامتة.. فعاد وسألها:

– تريدين شيئاً يا أسماء؟

– هذه حقول يا أبي..

– نعم.. هذه حقول.. اكشفي غطاء وجهك لتريها.. لا أحد في الطريق غيرنا..

أوقف والدها السيارة على جانب الطريق ونزل وأنزل ابنته. لا تفضل أسماء الوقوف فهي متعبة وتشعر بالإعياء لذا جلست على الأرض وأسندت ظهرها على كفر السيارة. وللحظة تمنت لو أنها جاءت إلى هنا وهي طفلة قبل أن ترتدي العباءة لتركض حول الحقول. أخبرها والدها بأنه لن يبتعد. تركها مكانها وسار مسافة قصيرة متجهاً إلى رجلٍ وزوجته كانا في حقلهما. سلم عليهما

وسألهما من أين يشتري عنزاً لم تحمل سوى بطناً واحدة. دلوه على راعٍ يخرج بغنمه إلى الجبال خلف القرية. وصفوا له الطريق التي لا تسلكها السيارات وعليه أن يسير على قدميه.

أخبرهما عن ابنته المريضة وأنه مضطر إلى تركها معهما إلى أن يذهب ويعود بسرعة. رحبا بوجودها معهما. عاد إلى ابنته وسارا معاً إلى الحقل القريب. تركها هناك وأكد لها بأنه سيعود فوراً.

رأت أسماء الفلاحة الشابة سافرة الوجه خرجت بثوبها الملون ولم ترتدِ عباءة. قالت أسماء في أعماقها: "لا زالت على جاهليتها لكن الله سيحاسبني أنا إن لم أعمل على استقامتها واتباعها لدينه الحنيف. لقد اختارني الله لمثل هذه المهمات وأرسل لي ملاكاً يشد من أزري ويعينني على الدعوة إلى دينه. ملاكاً يحرسني إن كنت في خطر ويقومني إن كنت على خطأ. يجب أن أتكلم.. أن أمنعها من السفور وأردها إلى طريق التقوى". ظلت مترددةً في كيفية البدء بالنصيحة إلى أن عاد والدها ومعه عنز سمينة.

شكر الأب الفلاحين فهنأته المرأة على حسن تربيته لابنته التي منعها الخجل من الحديث معهما إذ أنها لم تقل شيئاً منذ غيابه وبالكاد ردت على ترحيبهما بها وبعض الأسئلة البسيطة كأين تسكنين وما اسمك. وكان ردها بكلمات مقتضبة..

في السيارة بكت أسماء بحرقة وأكدت لوالدها بأنها ستلقى العذاب الشديد يوم الحساب لأن ذنبها عظيماً فقد رأت امرأة سافرة ولم تغير المنكر مع استطاعتها ذلك..

دخلا المنزل فاستقبلتهما والدتها مستبشرة متسائلة. طمأنها والد أسماء وأخبرها بأن الشيخ مشبب عالم كبير يعرف أسرار الجن

وأخبارهم، يعرف ما يطردهم وما يجذبهم وأخبرها بأنهم يفرحون بالطعام الذي تمسه النار. لذا فلن تأكل إلا اللبن والتمر والعسل مع القليل جداً من الخبز. وستدخل عزلتها بدءاً من يوم غد بعد الشروق. ثم أكد لها بأن لا تنسى الخلطة التي أعدها لها الشيخ وعليها أن تضعها إما مع كوب اللبن أو مع ملعقة العسل كل يوم إلى أن تنتهي وستتخلص أسماء من العاشقين اللذين احتلا جسدها الجميل.

تريد والدة أسماء لابنتها الشفاء العاجل فكانت ترغمها على شرب كوبٍ من اللبن كل يوم وقد وضعت فيه من الحبوب التي أكد الطبيب بأن لا تتوقف عن أخذها إلا بأمره. تضعها بالمقدار الذي حدده الطبيب ثم تضع معها من عجينة الشيخ مشبب وتشرب أسماء اللبن. لا أحد يعلم بما تقوم به الأم. لم تقل لوالد أسماء لكي لا يمنعها من وضع الحبوب. قالت لنفسها "لم أطبخ الحبوب على النار وبالتالي أنا لم أخالف تعليمات الشيخ وإن لم تنفعها فلن تضرها".

زادت والدتها على تعليمات الشيخ بأن أدخلت على غذاء أسماء بعض المعلبات كالجبن والقشطة وسمك التونا. إضافة إلى الكثير من الفواكه والسلطات الخضراء. وكان كل ما يهمها أن تبتعد عما طبخته على النار. أما الخبز فلا تحضر منه إلا ربع رغيف صغير لأنه دخل التنور. قالت لنفسها: "صدق الشيخ مشبب.. أذكر أن أمي قالت لي حين كنت طفلة إن اللجن مساكن في الرماد.. الله أعلم كم في رماد النار من العفاريت حين نخبز العجين".

فهمت والدتها بأن العزلة تعني الابتعاد عن الناس ولا تعني السجن في حجرة معينة لذا كان مسموحاً لأسماء الجلوس مع والدتها في المطبخ أثناء أعداد الطعام وأثناء تنظيف البيت حين يكون الأب

في عمله وأخوتها في مدارسهم.. لم يكن والدها يراها ولا أخوتها ولا أحد سوى والدتها إذ أنها قبل رجوع الجميع تدخل ابنتها إلى غرفتها وتعود لتقديم الطعام لهم ولا تأكل معهم بل تقوم إلى أسماء فتقدم لها الطعام المحدد وتجلس معها إلى أن تنهيه. وتبقى إلى أن تصليا العصر معاً في حجرة أسماء.

وبعد مرور الأربع عشرة ليلة رأى الوالد تحسناً ملحوظاً على أسماء فعرف أن الشيخ مشبب مختلف عن بقية الشيوخ.. وهاهي النتائج أمام عينيه. ابنته تتعافى شيئاً فشيئاً.. إنها تبتسم أحياناً.. تتكلم.. تتفاعل مع أسرتها. تعي ما يقولون.

آمن الأهل والأقرباء والأصدقاء والجيران.. آمن الكبار والصغار.. النساء والرجال.. كلهم آمنوا بالشيخ مشبب وبقدراته المتميزة في معالجة الممسوس والمسحور والمحسود.. حتى والدتها التي كانت تضع الدواء الذي وصفه الطبيب في اللبن لابنتها.. لم يخالجها الشك أبداً في المعجزة التي تحققت على يد الشيخ مشبب.. ولم تفكر قط في أن الدواء الذي كانت تدسه في اللبن كل يوم هو ما ساعد ابنتها لتتماثل للشفاء.

19

في الواحدة وبضع دقائق كان الشيخ عبد الرحمن يقف بسيارته أمام باب المدرسة في انتظار ابنته وحين صعدتْ إلى السيارة صامتة رمى الجريدة التي كان يتصفحها على المقعد المجاور له وانطلق بها إلى البيت.

ظلت مها على هذا الحال. تغدو وتروح مع والدها إلى عملها كل يوم. ووالدها غير مسرورٍ بالاستيقاظ والخروج مبكراً لكنه مضطرٍ إلى ذلك بعد أن وضعته ابنته في هذا الموقف الحرج.

أما مها فلم تعد تدري كيف سترسل رسائل إلى عبد الله بعد أن جاء إلى المدرسة ورآه البواب وعرفه، لو جاء مرةً أخرى فسيشك البواب في أمره. أو هكذا تصورت مها. هي تطمئن عليه كل سبت واثنين. تتحين الفرصة في الحصة الثالثة. وكلما كان عدد الموجودات أكبر في الإدارة كان هذا أفضل لها لكي ينشغلن مع بعضهن وتعلو أصواتهن فلا يسمعن همسها الذي لا يستمر سوى دقيقتين أو ثلاث ثم تغلق الهاتف قبل أن يرتاب أحد. ليس لديها جديد سوى الشوق الذي تتمنّى أن تبثّه إياه. ثم خطرت ببالها فكرة.. وبدأت تلح على صديقتها فوزية لتنفيذها:

– فوزية أرجوك.. أريد هاتفاً صغيراً قدر الإمكان.. يوجد في الأسواق هواتف صغيرة. أرجوك أحضري لي واحداً..

– هل جننتِ يا مها.. وماذا أقول لزوجي؟

- لا تقولي شيئاً.. لا تخبريه بالأمر.. أرجوك تصرفي.. أريد هاتفاً صغيراً..

- مها لن يخفى الأمر على زوجي.. أنا لا أذهب إلى الأسواق إلا معه.. لا يسمح لي بالذهاب مع سائق..

أصابها اليأس وقررت أن تطلب من عبد الله شراء واحد لها. وفي يوم الاثنين اتصلت من تليفون إدارة المدرسة وقالت له بمرح مصطنع بعد أن ألقت التحية:

- اسمعي يا نورة.. تقول مريم اتصلي بها على هاتفها.

قال عبد الله مستغرباً:

- لم أفهم.. لكن دعيني أفكك الجملة لنصل إلى المعنى وإذا وصلت إلى الكلمة الأهم في الجملة قولي نعم.

- اتفقنا.. أنت ذكية جداً.

بدأ عبد الله يعيد الكلمات ببطء:

- مريم... نورة... اتصلي... هاتفها..

وهنا قالت مها بحماس:

- نعم.

تساءل عبد الله:

- الهاتف.. ما به..؟

- اشتري واحداً.. وليكن صغيراً قدر الإمكان..

- تريدين هاتفاً صغيراً.. ثم ماذا.. أحضره لك عند باب المدرسة..؟

- نعم ولكن ليس أنت.. ليكن أي أحد.. لكي...

ولم تكمل جملتها فقال عبد الله:

- لكي لا يتعرّف عليّ بواب المدرسة.

- هذا صحيح...

- حبيبتي.. غداً صباحاً سيأتي سائق ومعه مغلّف مغلق تماماً ومكتوب عليه من الخارج اسمك فقط ليصل إليك. هل هذا جيد..؟

- بالضبط..

- حبيبتي تودين الاتصال بي..؟ أخاف عليك.. ماذا لو انكشف الأمر؟

- لن ينكشف.. سأنتظر الغد.. في أمان الله.

وأقفلت الخط بعد أن شعرت بشيء من التحسن بسبب التفاؤل الذي اعتراها. ستعود إلى السهر مع حبيبها على الهاتف ولو بشكلٍ متقطع وأقل مما كان.

في صباح اليوم التالي وقف سائق سيارة أجرة أمام المدرسة وناول البواب المغلف الصغير وقال له:

- هذا للمعلمة مها عبد الرحمن..

وضع البواب المغلف في حجرته وجلس ينتظر الوارد لكي يرسل كل ما يأتيه دفعه واحدة إلى المديرة مع زوجته المستخدمة بدلاً من أن يرهقها وهي تذرع ممرات المدرسة جيئةً وذهابا.

لكن مها لم تنتظر إذ هرولت بعد الحصة الأولى وقبل بدء الثانية ووصلت إلى البوابة وهي تلهث:

- يا عم ظافر.. أنا المعلمة مها.. هل أعطاك أحدهم شيئاً عليه اسمي؟

- نعم.. هذا لك..

وناولها من خلف الباب بعد أن مدت يدها إلى الخارج صندوقاً صغيراً من الورق المقوى مغلف بالورق الأبيض المسطر ومكتوب عليه

"إلى الغالية مها يحفظها الله".

ضحكت في أعماقها وقالت لنفسها "الغالية"!! ألا يستطيع حبيبي كتابة كلمة أكثر رسمية من الغالية.

أسرعت إلى حجرة المعلمات وقذفت بما في يدها في حقيبتها ثم اتجهت إلى الفصل لأن الحصة الثانية مثبته في جدولها.

عادت مع والدها إلى البيت وأثناء الطريق كانت تضع شنطة يدها على فخذيها وتضغط بها على بطنها.. "ماذا لو قرر أبي تفتيش حقيبتي الآن. الأفضل أن أبعد هذه الفكرة من رأسي لكي لا أدعوه إلى ذلك بنفسي. ربما يكون بين عقلي وعقله توارد خواطر".

تذكّرت مها أنها قرأت كتابا من ضمن ما أعطاها حبيبها يتحدث عن توارد الخواطر بين بعض الأشخاص. خافت من أن يقرأ والدها ما في رأسها "في ماذا أفكر لكي أصرف عقلي إلى شيءٍ آخر؟.. في الغداء.. أنا أشعر بالجوع.. أرجو أن يكون ما طبخته أمي هذا اليوم للغداء مرقوق.. سآكل عني وعنك يا عبودي" أفاقت من حديثها مع نفسها عندما أوقف والدها السيارة أمام البيت. هرولتْ إلى حجرتها كالعادة. صعدت فوق مكتبها ودفعت قطعة من قطع الآرم سترونغ في السقف إلى الأعلى ثم أدخلت الهاتف على القطعة المجاورة للقطعة التي دفعتها. أعادت القطعة التي حركتها إلى وضعها السابق ونزلت بسرعة ثم جلست بارتياح بعد أن خبأت دليل خطاياها. إذ أن

الحديث مع الحبيب عبر الهاتف خطيئة لا يمكن غفرانها من قبل الأسرة والمجتمع أبداً، بالرغم مما قالته جدتها حين سألتها عن الحب:

– (لا يوجد شجرة لم تحركّها الرياح). وتعلم مها من خلال ما تلاحظه على زميلاتها حين كانت طالبة وحين غدت معلمة أن لدى كل واحدة منهن شيء ما.. فإن لم تكن الواحدة منهن قد جربت التعرف على رجل فهي ربما جربت التعلق بفتاة. ناقشت الأمر ذات مرة مع حبيبها..قالت له: "برغم انتشار العلاقات بنوعيها الشاذة والسوية بشكل سري، يجرم المجتمعُ الحب.. ويقف ضد المحبين. وكأن أعضاءه من طينةٍ غير التي خلق الله منها سائر البشر".

سألها عبد الله حينها:

– ألا تعتقدين بوجود من وصلت إلى الثلاثين مثلاً ولم تتزوج ولم يعرف قلبها التعلق برجل أو بفتاة مثلها؟

– نعم.. لكن أظن أنها ستكون مريضة نفسياً على أقل تقدير.

لا تدري مها أين وضع والدها الهاتف الذي كان في حجرتها بعد أن طلب من والدتها إحضاره.. لكنها على يقين من أنه كل ليلة ينتزع الهاتف الموجود في صالة الجلوس ويدخله معه إلى حجرة النوم وفي الصباح عند ذهابها إلى المدرسة لا ترى الهاتف في الصالة لكن عند عودتها ظهراً يكون قد عاد إلى الطاولة بين كنبتين.. اكتشفت الأمر في ليلة خميس.. أطلت برأسها من أعلى السلم تنظر إلى صالة الجلوس في الأسفل ورأت والدها ينتزع السلك من الحائط ويحمل الهاتف ويهم بالصعود ليذهب إلى حجرة النوم.. أسرعت على أطراف أصابعها إلى حجرتها.. وبعد أن نام نزلت تنتقي بعض الكتب القديمة من مكتبة المنزل. وفي الصباح كان باب حجرتها مفتوحاً

ورأت والدتها تحمل الهاتف لتهبط به من جديد وتعيده إلى مكانه..هما يتناوبان إذاً.. يأخذه أحدهما ليلاً ويرجعه الآخر صباحاً.

اليوم عندها هاتفها الخاص الصغير.. نوت مها أن تتيقن أولاً من أن الجميع قد ناموا وبعد ذلك ستشبك سلك هاتفها في الفيش الموجود بالقرب من سريرها.

20

في الأسبوع الأخير قبل موعد امتحانات نهاية العام لم يذهب إخوة مها إلى مدارسهم ككثير من الطلاب والطالبات، وصاروا يناموس النهار ويستيقظون الليل كله. مبررين سهرهم أمام والديهم بانشغالهم بالمذاكرة طوال الليل.. فأصبحت مها لا تطمئن إلى وقت لتتصل فيه بحبيبها، الليل كله لأخوتها، والنهار لأبويها.. وعبد الله ينتظر بقلق.. ويتساءل "هل رأى أحدهم الهاتف الصغير معها.. هل ضربها أبوها من جديد..؟ ما الذي يحدث بحق الله؟

لا سبيل إلى التحدث معه إذاً إلا من هاتف المدرسة.. "وماذا إذا بدأت المديرة في الشك..؟ لا يهم.. لتمتلئ شكاً.. بل ليكن يقيناً بأنني عاشقة.. المهم أن أسمع صوت حبيبي.. وصارت تتصل كلما وجدت فراغاً في جدولها.. تهمس له ببعض الكلمات وتخرج من الإدارة سواء كانت المديرة فيها أو خارجها تتابع سير العمل في أي جزء من المدرسة.

انتهى العام الدراسي.. وستبدأ الإجازة الصيفية يوم غداً.. في هذا المساء الفاصل بين أيام العمل وأشهر العطلة الصيفية.. دخلت أم مها وقالت لابنتها:

- مها.. لقد تقدّم لك خاطب.. ووافق والدك وطلب مني أن أخبرك بأن الأسبوع القادم سيكون يوم عقد قرانكما..

نزل كلام الأم كالصاعقة التي شطرت مها إلى نصفين محترقين.. "هل جنتْ أمي؟.. مجانين.. مجانين هؤلاء القوم" نظرت

مها في عيني أمها وقالت بحزم:

- قولي له لن أتزوج إلا عبد الله.. ليحضر سياطه وليجلدني.. ليقتلني.. ليفعل ما بدا له.. سأتزوج عبد الله.

قالت الأم:

- يا ابنتي ما هذا الكلام..؟ أنتِ بنت قبائل لها نسبها وأصولها.. كيف تريدين الزواج بمن لا يناسبك ولا يناسب أهلك وناسك؟

قالت بكلمات أقرب إلى الصراخ:

- أنا متنازلة لكم عن نسبي.. أنا لست ابنةً لأحد.. ولا فخورة بكون جدي قبلياً متعصباً.. لن أتزوج سوى عبد الله..

خرجت الأم مستاءة وحزينة.. لكنها مضطرة إلى اطلاع الأب على موقف ابنته.. لم تقل الأم كل شيء..

قالت فقط:

- هي غير موافقة.

فقال الأب:

- لم أسأل عن رأيها.. قلت بلغيها.. لقد وجدت لها رجلاً مناسباً والخميس القادم سأعقد قرانها شاءتْ أو أبتْ.

- الله يكتب ما فيه الخير.

مرّت الأيام على مها ثقيلة كالجبال التي تربت فوقها.. رفضت الذهاب إلى السوق لشراء فستان مناسب.. رفضت حتى الطعام.. واكتفت بشرب القليل من الماء والقهوة العربية التي تذكرها رائحتها بالجلوس مع عبد الله.. تذكرها كيف يصب لها من الدلّة فنجاناً بعد آخر ويناولها لتشرب. وكيف صب أحد الفناجين وقربه من شفتيها

حين قرر أن تشرب من يده. كانت القهوة العربية ألذ من المعتاد بكثير. أما لقيمات الخبز بالجبن والمربى التي وضعها بيده في فمها فكانت ألذ ما تذوقته في حياتها.

صارت الآن شاحبة.. حزينة.. لا تدري هل تعاني من حرقة الشوق إلى حبيبها.. أم تعاني مما يفعله بها أبوها. لكنها على ثقة بأنها لن تتزوج ذلك الذي تقدم لها ولا تعرف إلى الآن حتى اسمه. إذا كانت لا تستطيع الزواج بمن تريد.. فعلى الأقل لن تسمح لوالدها بأن يفرض عليها الزواج بمن لا تريد. لقد قررت بينها وبين نفسها أن تدخل مجلس الرجال قبل عقد القران وتصرخ أمام جميع الحاضرين بأن والدها يرغمها على الزواج، وبهذا لن يتم العقد إلا بموافقتها ولن توافق. وبرغم قرارها هذا ظل شعورها بالقهر يبكيها كل يوم إلى أن تعبت من البكاء..

قالت أم مها لزوجها:

- إنها متعبة جداً.. أنت لا تراها ولا تعلم إلى أين وصلت.. تكاد تموت.. أنا قلقة عليها.

- لا تقلقي.. عندما تتزوج ستتغير. الزواج يفرح البنات حتى وإن رفضن في البداية. كلها أيام وننسى هذا الكابوس الذي نزل بنا.. هذا هو الحل الوحيد يا أم عادل.. وإلا الفضيحة التي لا يرضاها أحد لنا.

- معك حق.. لكن كيف ستظهر أمام أهل الرجل يوم الخميس.. إنها شاحبة ومريضة.. لا تكاد تمشي على قدميها.

- أعطيها بعض العسل مع الحبة السوداء وستتحسن.

اشترت الأم بمعاونة آية وعبير فستانين لهما وفستاناً بلون

التفاح لمها.. واتفقت مع النساء اللواتي يتم استئجارهن لعمل القهوة والشاي وتحضير الطعام والاهتمام بالمدعوات من أهل العريس. واتفقت مع صالونٍ للتجميل ليرسل الكوافيرة في الرابعة من عصر يوم الخميس لتعتني بشعر ومكياج مها وأختيها..

أما الأب فقد رتب مع أحد المطابخ إعداد ثلاثة خرفان سمينة.. مع الكثير من الرز والسلطات والإيدامات. وأبلغ أخوته وأبناء عمومته وأخوال مها بموعد الحضور ليكونوا جميعاً في استقبال الضيوف في الشارع كما تقتضي العادات.

اليوم هو الاثنين.. الموعد يقترب بسرعة.. والضغط على أعصاب مها يزداد.. شعرت بأنها عما قريب ستفقد عقلها وتقتل أحدهم.. لكن.. ولكي لا تفعل ذلك رأت أن عليها أن تقتل نفسها. الفكرة تراودها منذ أسابيع.. أما اليوم فقد استطاعت نقل هذه الفكرة من مجرد كونها رغبة في أعماقها إلى قرارٍ تخطط له ثم فعلٍ تشرع في تنفيذه. بالكاد تستطيع السير على قدميها لامتناعها عن تناول الطعام ولما حل بها من ألمٍ وضيم.. لكنها نزلت إلى المطبخ بعد أن غابت عنه أمها لدقائق.. فتحت باب الثلاجة وجمعت الكثير من حبوب مسكنات الألم وخافضات الحرارة وأدوية السعال وحين نظرت إلى الكمية التي صارت معها وأيقنت بأنها تكفي لقتلها قذفت بها في فمها في دفعات كبيرة ثم شربت بعدها نصف قارورة من المياه الغازية وتهاوت على أرض المطبخ من لحظتها.

عادت الأم لتجد منظراً روعها وجعلها تصرخ. مها ممددة على الأرض. باب الثلاجة مفتوح. الكثير من أغلفة الدواء فارغة ومبعثرة. قارورة المياه الغازية على الأرض وقد سال ما بقي فيها

وبلل بيجامة مها. أدركت الأم ما حدث ورفعت صوتها تنادي بنتيها وخادمتها. هرولن جميعهن وأحضرن العباءات. غطين وجوههن وغطين مها جيداً وحملنها إلى السيارة وخلال عشر دقائق كانت مها في قسم الطوارئ بعد أن صارت الأم تطلب من السائق بمعدل مرة كل ثلاث دقائق تقريباً بأن يزيد من سرعة السيارة.

بعد غسيل المعدة والعناية المناسبة من قبل الأطباء نجت مها من الموت الذي سعت إليه.. بكت عندما اكتشفت أنها لا تزال حية.. أراد الأطباء تحرير محضر بالحادث وإبلاغ الشرطة لكن بكاء والدتها وتوسلها الشديد جعلهم يتراجعون. وساعدوها بأن حسنوا حالة مها الصحية والنفسية بإعطائها الدواء المناسب من خلال كيس المحلول المعلق بالقرب من سريرها والذي انغرست إبرته في ظاهر كفها الأيسر. تركت الأم ابنتها مها في المستشفى وعادت هي وابنتيها إلى البيت لكي لا يتساءل الأب عنهم فتروي له الخادمة ما رأت. لقد قررت الأم أن تخفي عنه الحقيقة وأن تقول له إن مها مريضة بسبب امتناعها عن الطعام وبسبب الأرق الذي تعاني منه. وبعد أن قالت لزوجها ما قالته.. نبهت عبير وآية وخادمتها كثيراً لكي لا يتحدثن مع أحد عما حصل. وعدتها ابنتاها بدفن الموضوع في أعماق قلبيهما. أما الخادمة فقد بكت حزنا على مها التي طالما كانت تعاملها برفق ومحبة.

خرجت مها يوم الثلاثاء من المستشفى ومعها أدويتها التي تشمل مضادات الاكتئاب وبعض الفيتامينات والمعادن.

21

لم يترك عبد الله عادة المرور أمام المنزل وإلقاء التحية على السائق قيّوم كلما رآه ينظف السيارتين.. وفي مساء يوم الخميس أوقف عدد من الرجال سياراتهم في أرض فارغة تقع في الشارع الخلفي لمنزل مها وساروا على أقدامهم متجهين إلى الشارع الذي فيه منزلها. مشوا بطول الشارع في صف متناسق. استغرب عبد الله تصرفهم. كانت كتوفهم متجاورة كأنهم في صلاة، وخطواتهم تتسارع وكأنهم يرقصون. استغرب أكثر عندما رأى والد مها وبعض الرجال معه خمن بأنهم أعمامها يقفون في صفٍ مماثل في الشارع أيضاً أمام البيت. بدأ يدرك أن الأمر مريب. وعندما وصل الصف القادم رفع والد مها صوته وقال لهم بتنغيم لم يسمعه عبد الله من قبل:

– ارحبوا يا ضيفان الله يحييكم.

فردَّ رجل من الصف القادم ويظنه عبد الله أكبرهم مقاماً بصوت مرتفع ملأ الشارع:

– اسلموا.. والسلام عليكم.

ثم بدأ الرجال في الدخول إلى المنزل بعد أن قبّل بعضهم بعضا واستمعوا إلى كثير من كلامات الترحيب.

ظل عبد الله في مكانه البعيد منزويا بسيارته عند تقاطع الشارع بشارعٍ آخر.. حيث اعتاد المراقبة من هناك.. مضى بعض الوقت على المشهد الذي رآه أمام منزل مها ثم جاءت سيارتان ممتلئتان بالنساء. عدّهن عبد الله وكن تسعاً وثلاث طفلات لم يرتدين الحجاب

بعد. كلهن دخلن إلى منزل مها. وبعد ذلك بقليل جاءت سيارة المطبخ حاملةً الخرفان المطبوخة وباقي الأطعمة المنوعة..

رأى عبد الله السائق قيوم يساعد الرجلين اللذين يحملان الطعام ويسيران به لإدخاله من الباب الخلفي للمنزل. حرك سيارته ببطء وبعد أن ذهبت سيارة المطبخ اتجه قيوم إلى حجرته التي ضمن المنزل ولها باب يطل على الشارع مباشرة. وقبل أن يدخل رأى عبد الله يقترب فرفع يده ليرد التحية.. لكن عبد الله نزل من السيارة وصافحه وسأله عما يجري فأخبره السائق أن اليوم هو يوم زواج مها حسب كلام أخويها اللذين ذهبا مع السائق عدة مرات إلى الأسواق ليفصّلا ثياباً جديدة وليشتريا أحذية. بالإضافة إلى ما تطلبه منهما والدتهما لإحضار اللوازم المختلفة.

لم يتمكن عبد الله من سماع كل التفاصيل من قيوم. شعر بأن الدنيا كلها تدور حوله وأنه واقف كالأبله لا يدري ما الذي يتوجّب عليه فعله.

بهذه البساطة تضيع منه مها؟ ألم يرجُها في أولى مكالماتهما في بداية هذا العام بأن لا تضيع منه؟ ألم تعاهده بأنها له. نظر إلى قيوم الذي لا يزال واقفاً يتحدث عن الطعام الكثير الذي أدخلوه للتو إلى البيت. وسأله:

– هل أنت متأكد..؟ متأكد أن مها ستتزوج..؟ ربما يكون هذا زواج أختها وليس زواجها.

– لا.. أخت مها صغيرة.. هذا زواج مها. أنا متأكد.

اتجه عبد الله إلى سيارته دون أن يقول شيئاً. لا يدري كيف مشت السيارة به إلى المنزل.. لا يعلم أن كانت تسير وحدها وتعرف

الطريق أم أنه كان يقودها دون أن يشعر بذلك. وهناك.. على ذات الكنب الذي جلس مع حبيبته عليه.. لم يكن أمامه إلا الكأس.. يملؤها ثم يسكب ما بها في فمه كالمجنون.. وكلما عب الشراب ازداد الظمأ.

في بيت مها كانت النسوة متجمعات في مجلس النساء الواسع ينتظرن رؤية العروس.. والعروس في حجرتها تجلس باستسلام أمام الكوافيرة التي تضع ما أمكنها وضعه من المساحيق لتزين وجه مها المتعب.. وكلما أنهت جزءا من عملها سالت الدموع على خدي مها فيرسم سواد الكحل والماسكرا خطوطاً سوداء تضطر الكوافيرة إلى إعادة كل ما قامت به من جديد مع كثير من التعاطف والشعور بالأسى على حال هذه المسكينة التي سيزوجونها غصبا.

طرق عمها مغرم الباب ومعه سجل كبير وطلب منها أن توقع في خانة محددة أمام اسمها. نظرت إلى عمها بازدراء وكادت تبصق عليه. لكنها لم تفعل بل ظلت صامتة فخرج إلى والدها المنتظر عند باب الحجرة وأخبره بأنها لم توقع بل أرسلت نظراتها إليه دون أن تقول شيئاً. أمسك والد مها بالقلم وكتب اسم مها في الخانة المطلوبة ثم مرر القلم جيئةً وذهاباً فوق اسمها ليظهر الشكل وكأنه توقيع وطلب من أخيه مغرم الذي يكبره بعدم اطلاع أحد على الأمر.. لأن البنت مدللة جداً وصارت ترفض حتى أفضل الرجال.. فلم يكن من الأخ إلا أن قال:

- كل الحق عليك.. أنت من دللها وهي صغيرة.. وقد نصحناك حينها ولم تسمع كلامنا..

هبطا الدرج وهما يثرثران عن تربية البنات.. ووجوب الحزم معهن.. ثم أعادا السجل إلى المأذون الذي أنهى عقد القران وانصرف.

طال انتظار النساء للعروس.. وطال انتظار العريس لرؤية المرأة التي غدت زوجته.. ووالدة مها تصعد الدرج وتهبط ولا ترى أملا في إصلاح شأن ابنتها..

أدركت مها أن والدها لن ينتظر موافقتها وسيزوجها كما فعل الكثيرون غيره. هي تعرف عددا من زميلاتها تزوجن دون أن يسألهن أحد رأيهن. ولم يتثبت المأذون يوما من موافقة أي فتاة. المأذون يكتفي بما يخبره به الولي والشهود. إنها على ثقة من أن اثنين من أعمامها أو أخوالها هما الشاهدان وسيتواطأان مع والدها. ثم خطرت لها فكرة. سترى الرجل الذي تزوجها الآن وستقول له بكل وضوح إنها غير موافقة عليه وأن والدها أجبرها على الزواج منه فإن كان عنده ذرةٌ من رجولة فسيطلقها فوراً.. "لن يخرج من المنزل إلا بعد أن يرمي يمين الطلاق لأن من يقول عن نفسه إنه رجل لا يقبل العيش مع امرأة ترفضه" قالت لنفسها هذا واتخذت قرارها ثم وقفت أخيراً. ارتدت ثوبها الجديد وهبطت السلالم بشعر غير متناسق كما ينبغي لعروس ومكياج أزالت الدموع أكثره.

علا صوت المسجل وسمعت الزغاريد تنطلق من النساء اللواتي استأجرتهن والدتها لإعداد الشاي والقهوة. لاشك ستدفع لهن والدتها الكثير مقابل ما قمن به الآن. انطلق أحمد وعادل إلى والدهما ليخبراه فطلب الأب من العريس النهوض والسير معه إلى الصالة التي ستصل إليها مها.

نزلت مها ورأت والدها وقد وقف إلى جواره رجل كث الشارب نحيل الجسد ينظر إلى حذائه ويحرك أصابع يده اليسرى ثم يقبض عليها بيده اليمنى. وقفت أمام والدها الذي اقترب وقبّل جبينها

فتذكرت على الفور كم عانت من الألم حين ضربها وشتمها وسجنها في حجرتها وكم عانت وعانى حبيبها حين أرادا الزواج فرفض بقسوة استمدها من عاداته التي يحبها أكثر من حبه لابنته ويقتل دون عاداته تلك قلبها الصغير لم تمسح القبلة شيئاً من الألم. زادته ربما.

حاول الشاب الذي نسي والداها أخبارها باسمه أن يمسك يدها.. لكنها ابتعدت بما يزيد عن العشرين سنتيمتراً فأعاد يديه إلى بعضهما يضغط بالواحدة على الأخرى ويمشي ببطء.. أسرعت في مشيتها وظل يحاول اللحاق بها إلى أن وصلا إلى حيث تجلس أمه وأخواته وبنات أخواته وبنات إخوته.. دخل فانطلقت الزغاريد وسارت مها إلى صدر المجلس ثم جلست فجلس إلى جوارها. لم يكن في مشيتها تأني خطوات العروس ولم يكن على وجهها فرحة المستبشرات بحياة هنئية.

22

امتلأ عبد الله حتى آخره وشرب في نهاية ما شرب شيئاً من دموعه التي تساقطت في كأسه.. ظل يبكي كيتيمٍ لا يدري أين اختفت أمه وظن أن بكاءه سيعيدها إليه. قبّل الكنب حيث أسندت مها ظهرها يوماً. احتضن صورة حبيبته وتواصل نشيجه الذي ضاعفت الخمر قدرة عبد الله على إظهاره. تناول أوراقه وقلمه ثم وضعها وصار يحدث الصورة بصوتٍ مسموع:

"هل أكتب الآن شعراً يا مها.. لا.. سأكتب ما قالته جان دارك.. أتعرفين ماذا قالت يا مها.. قالت: ما من عذاب ينزله القدر برجل أفظع من أن يحرمه من وجه مها.. نعم هكذا قالت. أنا أكذب.. جان دارك لم تقل هذا.. أنا الذي قلته.. هل تصدقينني يا حبيبتي.. ما من عذاب ينزله القدر بي أفظع من أن يحرمني منك.. حبيبتي سأكتب رواية.. أسميها.. ليلة ضياع مها.. لا.. لا أستطيع الكتابة.. سأرسم.. سأتعلم الرسم الآن وأرسم وجهك الجميل.. أرسم وجه مها.. وقلب مها.. قلبك الذي يحبني.. هل لا زال يحبني..؟ هل لا زلت تقبّلين صورتي كما كنتِ تفعلين كل مساء..؟ هل ستقبلين صورتي صباح غدٍ ككل صباح.. هل لا زلتِ تحتفظين بالصورة أصلاً..أم أنك مزقتِها كما أتمزق الآن.. مها هل تتألمين.. هل تبكين مثلي.. ربما أنتِ الآن مبتسمة تمسكين بيد رجلٍ آخر والتاج على شعرك الجميل.. هل عطرتِ شعرك لتسكري رجلك الجديد إذا اقترب هامساً في أذنك كما أسكرتني حين كنت تميلين برأسك على صدري.. لا.. لا يا

مها.. لم تفعلي شيئاً من هذا.. هم أجبروك على كل شيء.. ضربك ذلك المعتوه من جديد.. ألهب جلدك الناعم بسياطه.. سأقتله يا مها وأريحك منه..سأقتله يا حبيبتي.. قولي لي ماذا أفعل الآن..؟ هل أخرج لأقتله..؟"

طرح كل هذه الأسئلة على نفسه وهو يواصل عب الكؤوس ثم التقط مفاتيح سيارته وترنح أثناء سيره ليخرج من البيت. عاد إلى الصورة يقبّلها ثم اتجه إلى سيارته.

قاد سيارته مبتعداً عن بيته وعن بيت مها.. لقد اختار ذلك الطريق الذي طالما حلمت مها أن يأخذها إليه.. الطريق الذي يكسوه الضباب في الشتاء وهذا ما جعل مها تقول له ذات حديث:

- ليتنا نسير بسيارتك وسط الضباب وليس معنا سوى صوت فيروز.

إنه طريق السودة الجبلي المتعرج. ولن يعود قبل أن تشرق الشمس على تلك الجبال العالية. اتخذ هذا القرار ثم رجع عنه أكثر من مرة. ولا يدري لماذا صارت الطريق شديدة الانحناء هذه الليلة. ولماذا بدت له الجبال شاهقةً أكثر من ذي قبل.."ماذا لو أن هذه الجبال تعلو أكثر وأكثر حتى تصل بي إلى السماء.. سأدخل الجنة مباشرة وأجلس هناك أنتظر مها.. ستأتي يوماً بلا شك.. لا.. لن أدخل الجنة بدونها.. سأجلس على الباب في انتظارها.. الله يعرف ما بي ومن أنتظر.. وملائكته يعرفون أيضاً.. لهذا فلن يطردني أحد.. سأشرب من أنهار الخمر هناك.. الخمر ستكون متوفرة جداً.. سأشرب وأنتظرها فقط.. هذا كل ما سأفعله إلى أن تأتي مها.. وحينها سأتزوجها حتى وإن مات أبوها غيظاً.. كيف يموت ونحن في

يوم البعث.. سيكون أبوها في سقر مع المجرمين والقتلة.. سيشوى قلبه في النار كما شوى قلبينا الآن.. أنا وهي سنكون في الجنة.. سأطلب من نجاة الصغيرة أن تغني لنا أغنية عيون القلب.. ستفرح مها جداً لأنها صارت تحب نجاة بعد أن استمعت إلى هذه الأغنية.. أوه.. ها أنا أقترب من السماء.. الجبل يعلو.."

ظلّ عبد الله يحدث نفسه تارة ويتأمل الجبال لعلها ترتفع أكثر تارةً أخرى ثم غاب عن وعيه تماماً دون أن يدرك ما حدث له.

مرت أربعة أيام على عبد الله وهو في قسم العناية المركزة قبل أن يفيق.. ويعرف الأطباء بناءً على نتائج الأشعات التي أجروها له بأنه لن يسير على قدميه بعد الآن. فقد أدى الحادث الذي وقع له في ليلة ضياع مها إلى تهشم الجزء السفلي لعموده الفقري.. بالإضافة إلى كسور في ساقيه وإحدى فخذيه وكسر في عظمة الترقوة.

ربما كان الأولى به أن يكتب روايةً في تلك الليلة بعنوان ليلة ضياع عبد الله.. أو ليلة ضياع عبد الله ومها.. لكنه لا يدري إلى الآن بما جرى له. الأطباء أخبروا أباه وأخاه اللذين كانا على حافة الانهيار لولا مساندة بعض الأصدقاء المجتمعين لزيارته في المستشفى لكن الزيارة لا تزال ممنوعة.. أما والدته فكاد الخبر يقضي عليها.. جلست عند باب حجرته لا تغادرها.. تدخل إن أذن لها الطبيب وتبقى إلى أن يأمرها برفق لكي تغادر.. تخرج لتبكي وتعود لتقف في ذهولٍ أمام طفلها الذي غدا شاباً تتباهى بكونه ابنها هي من بين نساء الأرض. "هل في شباب الدنيا أجمل منك يا عبد الله.. وهل فيها قلبٌ يتفطر مثل قلبي عليك.." هكذا تساءلت أمه التي لا تريد الإجابات لأنها تعرفها.

23

لم تتمكّن مها في تلك الليلة من الحديث مع ذلك الرجل الذي جلس إلى جوارها وسط قريباته.. لقد قامت النسوة للسلام عليها.. ثم أراد أن يلبسها العقد الذي أحضره لكنها دفعته بيدها وأبعدت عنقها عنه.. ظن أن الخجل هو سبب تصرفها فعذرها.. وضع الطقم على الطاولة ثم خرج بعد وقت قصير.. "لا بأس.. لم يحدث شيء.. غداً سأقول له أني غير موافقة عليه.. غداً سأطلب الطلاق.." هكذا قالت لنفسها بعد أن خرج الجميع وعادت إلى حجرتها.. رمت بثوبها على الأرض واحتضنت صورة عبد الله وارتمت على سريرها تبكي.

مرّت ثلاثة أيام على تلك الليلة الكئيبة دون أن تعلم مها بما حدث لحبيبها. وظلت تنزل السلم وتصعده بحثا عن وقت مناسب لتشبك هاتفها الصغير وتتصل بحبيبها لعلها تشكو إليه حالها وتخبره بما فعله بها أبوها، لكنها لم تجد سبيلا إلى ذلك فدائما هناك بعض المستيقظين يتسامرون في صالة الجلوس ويتابعون أفلام الفيديو كما هي العادة في وقت الإجازات. لم تخبر حبيبها.. ولم تطلب الطلاق من ذلك الرجل لأنه لا يأتي ولا يتصل. ما هذا الذي يجري لها.. لاشيء يتحرك إلى الأمام.. لا بد أن تنجز شيئاً.. ستبحث عن رقم ذلك الرجل في أوراق والدها وتتصل هي به مادام لا ينوي الاتصال لتنتهي من هذا الأمر المعلق. ولكن أخبرتها أمها أمام أختيها بأن محمد سيزورهم مساء هذا اليوم.. سألت مها جادة:

– ومن هو محمد..؟

ابتسمت والدتها.. وأدركت مها بأن اسمه محمد فقالت:

- هذا هو اسمه إذاً.. ظننت أن اسمه غوار الطوشي.

ضحكت البنتان فنهرتهما الأم. وهنا قالت مها بكثيرٍ من الاشمئزاز:

- ألم تلاحظن أنه كاد يسقط على وجهه لثقل شاربه.

ثم استدعى عقلها صورة حبيبها على الفور.. تذكرت فمه وقبلاته.. تذكرت أحضانه.. رقته حين يطوقها. أفاقت حين قالت أمها:

- استعدي لاستقباله في مجلس الرجال بحضوري أو حضور أحد أخويك. حذار من أن تجلسا وحدكما.

قالت مها بانفعال:

- اسمعي يا أمي.. لا أريد أن أراه أريد رقم هاتفه فقط.. هل يمكن أن أتحدث معه على الهاتف..؟

- طبعاً يمكنك ذلك.. صار الآن زوجك.. الرقم موجود في المفكرة التي على التلفزيون.. كتبته أخته بيدها تلك الليلة.

قفزت مها والتقطت المفكرة الصغيرة ثم حملت الهاتف من بين أختيها وأمها في صالة الجلوس واتجهت إلى حجرتها.

رفعت والدتها صوتها مؤكدة:

- لا تطيلي الحديث لكي لا يظن أنك متلهفة عليه.. اختصري جداً.. وليسبق خجلك كلماتك أثناء حديثك معه لكي لا يظن أنك متمرسة في الحديث مع الأغراب. تظاهري بالخجل حتى وإن لم تشعري به.

وصلت مها حجرتها وأقفلت الباب ورمت المفكرة على الأرض ثم اتصلت برقم عبد الله.. وكلما انتهى الرنين أعادت الاتصال من

جديد..ولكن لا أحد يجيب.

اتصلت مباشرة على بيت أخيه وطلبت أريج.. أرادت مها أن تحكي لأريج كل شيء لكي تخبر عبد الله بما فعلوه بها.. ولكن صوت أريج جاء حزيناً وكأنه بكاء.

- ما بك يا أريج.. هل أنت بخير.

- عمي يا مها.. عمي..

- عبودي.. ما به.. ماذا حدث..

- عمي في المستشفى.. بين الحياة والموت.. انقلبت به السيارة في طريق السودة قبل ثلاث ليالٍ وهوت به إلى وادٍ سحيق.. لم يبق فيه عظم سليم.. لقد تهشم تماماً.

سقطت السماعة من يد مها وسقطت هي على الأرض بعد صرخة مدوية جعلت كل من في المنزل يتراكضون إليها.

أحضرت الأم الماء ورشته على وجه ابنتها ثم تناولت قارورة عطرٍ من فوق تسريحة مها وبدأت تقربها من أنفها وترش شيئاً منها على ابنتها. أفاقت مها وهي تصرخ بعد أن استنشقت عطر عبد الله.. انتزعت القارورة من بين يدي والدتها وضمتها إلى صدرها وظلت تبكي على الأرض.. حاولت أمها حملها إلى السرير فقاومت وظلت تبكي.. لم تجب على كل الأسئلة التي سمعتها واستمرت في النواح.. وحين يئست أمها وأختيها من استجابتها لهن خرجن على أن يعدن إليها بعد أن تهدأ فتناولت الهاتف واتصلت بأريج من جديد..وهي تبكي:

- أريج كيف هو.. وفي أي مستشفى يرقد؟

بكت أريج وهي تحكي:

- يقول أبي أن عمي صار مشلولاً وسيبقى كذلك إلى الأبد.

علا صوت نواح الفتاتين معاً:

- مشلول..؟ لا.. مستحيل.. بالتأكيد هناك علاج.. يجب أن يعالج.. سفّروه إلى الخارج.. افعلوا شيئاً أرجوكم يا أريج..افعلوا شيئاً.

وقبل أن تتابع كلماتها دخل أبوها عليها فرمت السماعة على الأرض وقامت إليه تضرب صدره وتصرخ به وتقول:

- أنت السبب.. أنا لن أسامحك.. لا سامحك الله.. لا سامحك الله.. أنا أكرهك.. أكرهك.

هوت كفه على وجهها بقوة أسقطتها على الأرض من جديد.

لم يعط الشيخ عبد الرحمن أي أوامر هذه المرة بسجن ابنته.. لقد دخل إلى حجرته ووضع وجهه بين كفيه وبكى.. بكى وكان قد نسي أن الرجال يبكون أيضاً.. تمنى في داخله لو أنه كان قادراً على أن يزوجها ممن أحبت.. لكنه محكوم بما لا يستطيع تجاوزه.. أدرك في تلك اللحظة أنه ضعيف مهما تجبر على ابنته.. ضعيف لأنه وقف ضد الأضعف.. ضد مها.. لو أنه قوي كما كان يظن لساند ابنته وقاوم تقاليده.. لو لم يكن ضعيفاً جداً لحارب من أجل سعادتها.. بدلا من أن يحاربها وهي التي أرادت الزواج برجلٍ اختاره قلبها.. أو اختاره القدر لقلبها.

بقيت مها في حجرتها أياماً لا تكلم أحد.. ولا تفعل شيئاً أبداً.. وكلما دخلت عليها والدتها وجدتها ممدةً تحت السرير لا فوقه وفي يدها قارورة لم يبقَ من عطرها إلا نصفه.

نقلوها إلى المستشفى.. أعطوها الكثير من الأدوية.. بذلوا جهداً

لكي تأكل.. لكن مها تزداد سواء.

أحضروا شيخاً تلو آخر ليقرأ عليها القرآن الكريم لعلها تعود إلى ما كانت عليه دون أن يجدوا أثراً لما يفعلون.

أرسل محمد ورقة طلاقها إلى والدها بعد أن تأكد من أن الشيخ عبد الرحمن غشه حين زوجه فتاةً مريضة.. لا تغادر حجرتها إلا إلى المستشفى.. أو إلى منزل أحد المشايخ ليطرد عنها الجن والشياطين. طلقها واسترجع المهر كاملاً وكل الذهب الذي أحضره لها.

أصرّ عمها مغرم ذات صباح على أخذها في سيارته ومعها والديها واتجهوا إلى الشيخ مشبب.. أدخلتها أمها في مجلس واسع يعج بالنساء المريضات في منزل الشيخ، ودخل والدها وعمها إلى قسم الرجال.

أجلستها أمها بين النسوة الكثيرات. وكان إلى جوارها فتاة تعلّقَ نظرها في سقف الحجرة وفتر ثغرها عن ابتسامة بلهاء.

في ذلك المجلس مالا يُمحى من ذاكرة من رآه. وكلهن جئن بحثاً عن الدواء.. مالت أم مها تسأل امرأةً إلى جوارها رأت أنها بخير دوناً عن الأخريات.. أرادت بسؤالها أن تطمئن إلى ما سيحدث لابنتها:

– ماذا سيفعل الشيخ بنا.

فأجابتها المرأة بسؤالها:

– هل أنت مريضة..؟

قالت أم مها:

– لا.. لكني جئت بابنتي إلى هنا.

- مثلي.. أنا أيضاً جئت بابنتي.

صمتت أم مها قليلاً ثم عادت تسأل:

- هل جئتِ إلى هنا قبل الآن..؟

قالت المرأة:

- نعم جئنا كثيراً أنا وابنتي..

- وأين هي..؟

- هذه التي بجوار ابنتك.. أليست تلك هي ابنتك؟

نظرت أم مها إلى الفتاة التي تجلس إلى جوارِ ابنتها ورأت نظراتها الزائغة إلى السقف فأحزنها حالها وصارت لا تدري هل تبكي من أجل مها أم من أجل الأخريات.. سألت من جديد:

- وما اسم ابنتك..؟

- اسمها أسماء.. كانت من خيرة بنات العائلة.. كانت معلمة في مدرسة قريبة من بيتنا.. حافظة للقرآن الكريم والله.. صوامة قوامة.. لكن الأقدار.. عشقها اثنان من الجن واختصما عليها داخل جسدها.. وأنتِ ما اسم ابنتك..؟

تمت

سَفَر

رواية

عائشة عبد العزيز الحشر
• كاتبة من السعودية

.. أرهقتهـا الظنون وملأت رأسـها الوسـاوس. طلب منها أن يراهـا.. أن يتعـرّف إلى شكلهـا.. أن يجلسـا معاً وأن يتحدثـا كمـا يتحدثان علـى الهاتف. هـل يستدرجها كما تقـول فوزية؟ «مستحيل».. بهذه القطعية جزمت مها. ثم عـادت إليهـا وساوسـهـا «فلمـاذا لا يريـد أن نتحدّث عن مستقبلنا؟»..

وضعـت وجههـا بين كفيها وبكـت.. بكت لأنها أحبته.. أحبتـه ولم تعد قـادرة على الابتعاد عنـه. لكنه يهرب من الحب. وهذا ما يجعلها لا تجرؤ على إخباره ما لم يخبرها هو بأنه أحبها.

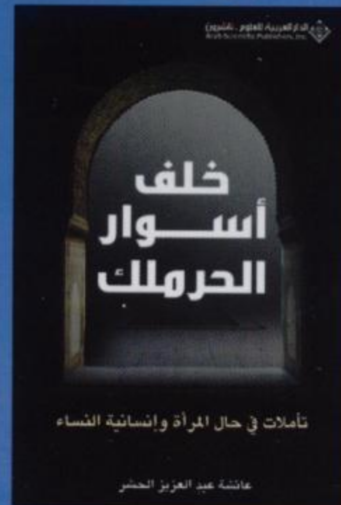
يلمّح عبد الله دائماً إلى رغبته في أن يرى مها فتخبره بأنها تتمنّى أن تراه هو أيضاً. وبرغم كل الكلمات التي وصف عبـد الله بهـا نفسـه وكل الكلمـات التي وصفت مها بها نفسهـا بقيت صـورة كل واحـدٍ منهمـا خيـالاً في عقـل صـاحبه. وكم تمنّيا أن يتيقّنا من تلك الصور.

•••

.. هل حرّكت قدمها اليسرى؟ أخبره والدها بأنها حرّكت قدميهـا وتحـاول طوال الوقت تحريـك جسدها كله. فقام الشيـخ مـن فوقهـا وقـد أكّـد لهـم أن تحريكهـا لقدمها اليسرى دليل على خروج الجني.

بقيت أسماء ملقـاة على الأرض لا تتحرّك. وفسّر الشيخٍ ذلك لوالدها بأنٍ خروج الجني من جسدها أرهقها إلى حد رهيب. وقد يؤدي ذلك الإرهاق إلى أن تبقى نائمة لساعات بعد خروجه. ترك قارورة ماء قال إنه قرأ عليها آيات من القـرآن الكـريم. وأن علـى أسمـاء أن تشـرب منهـا في الصباح وفي المساء لتحميها من عودة الجني إلى جسدها.

صدر للكاتبة أيضاً:



ISBN 978-9953-87-232-2





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

